مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية

فصلية علمية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

المصدر الذوقي عند الصوفية والموقف السلفي منه دراسة تحليلية نقدية

د. أمل سليمان الموسى

جامعة الكويت

مجلس النشر العلمي

ISSN: 1029-8908

العدد ١١٧- السنة ٣٤

رمضان: ١٤٤٠هـ - يونيو ٢٠١٩م

البحث السادس

المصدر الذوقي عند الصوفية والموقف السلفي منه دراسة تحليلية نقدية

د. أمل سليمان الموسى
أستاذ مساعد في قسم الدراسات الإسلامية – كلية الآداب
جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

المصدر الذوقي عند الصوفية والموقف السلفي منه
دراسة تحليلية نقدية

د. أمل سليمان الموسى(*)

تاريخ استلام البحث: مارس ٢٠١٨م تاريخ إجازة البحث: يونيو ٢٠١٨م.

ملخص البحث

هذا بحث في (المصدر الذوقي عند الصوفية والموقف السلفي منه: دراسة تحليلية نقدية)، جاء في مقدمة يتلوها تمهيد ومطلبان وخاتمة، أما المقدمة فقد بينت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وخطة البحث، ومنهجي فيه، ثم كان التمهيد في بيان معنى الذوق في اللغة، أما المطلب الأول: فجاء في الذوق عند الصوفية؛ وجاء المطلب الثاني في الذوق عند السلف، ثم كانت الخاتمة وتتضمن النتائج ومنها:

١. إن مصدر تلقي المعرفة والعقيدة والسلوك وتزكية النفوس هو الكتاب والسنة لا يرجع فيها إلى الأشخاص، وتحكيم الأذواق؛ فالدين كامل والرسول ﷺ بيّن جميع الدين أصوله وفروعه، وكل دعوى في اتباع السلف لا تكون قائمة على هذا المنهج فهي مرفوضة.

٢. إن مصطلح الذوق عند الصوفية بمعناه الخاص – وهو المقصود عند الصوفية عند الإطلاق – ليس هو اللذة التي يشعر بها الصوفيّ جرّاء إخلاصه في عبادته وإقباله على ربه، بل هو نور عرفاني ناتج عن تجلي الله – عز وجل – يقذف في قلوب الأولياء يفرقون به بين الحق والباطل، وهو أداة المعرفة عند الصوفية، وملكة خاصة بها تدرك الحقائق الغيبية، ومصدر من مصادر التلقي الموصل لحق اليقين، وهو مقدم على السماع، ونهاية هذا الذوق والتجلي المكاشفة والفناء.

٣. إن الذوق بالاصطلاح الصوفي قد مرّ خلال مسيرته التاريخية بمراحل، وتأثر بمؤثرات مختلفة، وإن نهاية طريق الذوق عند المتأخرين من القوم هو معرفة وحدة الوجود، وأن العارف الكامل هو الذي يعرف أن الكون هو الله – تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا – ذوقاً واستشعاراً، فمن ذاق عرف.

الكلمات الدالة: عقيدة – الصوفية – الذوق – المصطلحات الصوفية.

(*) د. أمل بنت سليمان بن عبد الله الموسى. تحمل شهادتي الدكتوراه في العقيدة والمذاهب المعاصرة، من كلية التربية سابقا جامعة الأميرة نورة حاليا عام ١٤٢٥هـ، والماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة ١٤١٩هـ. والبكالوريوس في العقيدة والمذاهب المعاصرة عام ١٤١٢ هـ. والشهادات الثلاث من كلية التربية(سابقاً) جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن حالياً، وتعمل أستاذا مساعدا في كلية الآداب، قسم الدراسات الإسلامية منذ عام ١٤٢٥هـ، في الجامعة ذاتها. لها كتب منشورة وأبحاث علمية محكمة في مجال التخصص. الاهتمامات البحثية: المذاهب والفرق والنوازل العقدية المعاصرة.

المقـــــدمة

إن الحمد لله نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضللْ فلا هادي له، وأشهدُ أنَ لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، وأشهد أن محمداً عبدهُ ورسوله، أما بعد..

فقال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦)، فالله عزوجل خلق الخلق لعبادته، ومن أجل أن تقوم الحجة عليهم أرسل الرسل – عليهم السلام – وأنزل الكتب، وقد قام الرسول ﷺ بإبلاغ الرسالة، ونصح الأمة، فتمت النعمة، وكمل الدين: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣).

وقد كان للسلف – رحمهم الله – منهج متميز في تلقي العقيدة والعبادة والسلوك وهو يقوم على أصول راسخة، وقواعد متينة عمادها الكتاب الكريم، وصحيح السنة المطهرة، والتسليمُ لهما، قال الله تعالى:﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

و قد خالفهم في ذلك **المبتدعة** الذين أعرضوا عما ورد في الشرع، وابتدعوا لأنفسهم مصادر للتلقي والمعرفة جعلوها القول المحكم الذي يجب اعتقاده واعتماده، فقامت الفتنة وظهرت الفرق ومنها فرقة الصوفية، وكان من أخطر **بدع التصوف** مصادرهم في تلقي الدين ومعرفته وكان من هذه المصادر الذوق، فاعتقدت الصوفية المبتدعة الذوق أساسا للعلم وطريقا للإيمان بالله والعبودية له، بل وعارضوا بأذواقهم دلائل الكتاب والسنة حيث قرر «ابن عربي»(ت:٦٣٨هـ) الذي كان أكثر الصوفية توسعا في الحديث عن الذوق أن حق اليقين الذي هو أعلى مراتب اليقين الذي يسعى إليه السالك – عند الصوفية – هو ما يتحقق عن طريق الذوق.

ولما كان من الواجب على كل مسلم ومسلمة النصيحة لله – تعالى – ولرسوله ﷺ ولعامة المسلمين؛ لذا آثرت اختيار هذا الموضوع: (**المصدر الذوقي عند الصوفية والموقف السلفي منه: دراسة تحليلية نقدية**)؛ ليكون موضوع البحث.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١. أهمية العناية والاهتمام بالعقيدة وتصحيحها فهي أول الأولويات كما هو منهج الأنبياء والرسل – عليهم السلام –

٢. بيان أنّ مصدر تلقي العقيدة والسلوك والأخلاق عند السلف الصالح هو الكتابُ والسنّة فمن فارقَ الدليل ضلَّ عن سواءِ السبيل، ولا دليل إلى الله والجنّةِ سوى الكتابُ والسنّة.

٣. مكانة الذوق في الفكر الصوفي المنحرف بجعله مصدرا للمعرفة والتلقي وما ترتب على ذلك من الإعراض عن الوحي وقولهم الطريق إلى الله كنفوس بني آدم، إذ الذوق ليس له نهاية؛ لأن تجليات الحق غير متناهية.

٤. أن التصوف وإن كان في أوائل نشأته اسم للزهد المتطور بعد القرون المشهود لها بالخير لكن سرعان ما انحرف في مسيرته لعوامل متعددة نقلت التصوف نقلة كبيرة وألقته بعيداً عن مبدئه ونشأته القائمة على تعاليم الزهد والعبادة.

أهداف البحث:

١. دراسة معنى الذوق الصوفي ومكانته عند الصوفية من نشأته إلى وقتنا المعاصر.

٢. الكشف عن العلاقة بين الذوق ومصادر التلقي الأخرى كالتجلي، والمكاشفة، والمشاهدة.

٣. إبراز العلاقة بين الذوق والمصطلحات الصوفية: الخمر والسكر والفناء والشطح.

٤. توضيح الأسباب والشبهات التي كانت وراء اعتماد الصوفية المبتدعة الذوق مصدرا للتلقي.

٥. بيان الموقف السلفي من الذوق الصوفي القائم على أساس النقد العلمي المستمد من نصوص الكتاب والسنة.

مشكلة البحث:

١. ما منزلة الذوق عند الصوفية؟ وكيف كان تأثير ابن عربي على هذا المصدر الصوفي؟.

٢. ما العلاقة بين الذوق ومصادر التلقي الأخرى كالتجلي، والمكاشفة، والمشاهدة؟.

٣. لماذا ارتبط الذوق بالمصطلحات الصوفية: الخمر، والسكر، والفناء، والشطح؟.

٤. ما الأسباب والشبهات في اعتماد الصوفية المبتدعة للذوق كمصدر للتلقي؟.

٥. ما مدى المخالفة العقدية للذوق الصوفي؟.

الدراسات السابقة:

بعد البحث في الدراسات السابقة لم يفرد أحد بالبحث – حسب علمي – الذوق الصوفي في المصنفات الصوفية بدراسة مستقلة، وأبرز دراسة وقفت عليها تناولت الذوق في جملة من الموضوعات هي:

رسالة الماجستير القيمة الموسومة بـ (المصادر العامة للتلقي عند الصوفية؛ عرضا ونقداً) للباحث: صادق سليم، في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١١هـ، وهي رساله علمية متميزة نص الباحث فيها أن منهجه في البحث هو توثيق المعلومات مع عدم مراعاة فترة زمنية معنية عند حديثه عن التصوف، وقد تناول فيها مصادر التلقي العامة عند الصوفية في أربعة أبواب، جاء الذوق في الباب الثالث في فصلين: الأول: في تعريف الذوق عند الصوفية، والثاني: في نقد الذوق الصوفي الذي بين فيه الباحث أن غالب النقد في هذا الفصل حول كلام «ابن عربي» فيه.

وبهذا يظهر الفارق بين هذه الدراسة وهذا البحث:

من حيث المنهج: فالبحث يتناول دراسة الذوق الصوفي وتطوره التأريخي بدءاً من نشأة التأليف الصوفي إلى وقتنا المعاصر.

ومن حيث طريقة الدراسة فالبحث يتناول الذوق الصوفي، وبيان العلاقة بينه وبين مصادر التلقي الأخرى ثم نقده بالتتبع التأريخي للأقوال والرد عليها.

حدود البحث:

الحدود الموضوعية: سيتناول البحث دراسة مصطلح الذوق الصوفي بجمع أقوال الصوفية من كتبهم وأبرزها: (اللمع للطوسي، التعرف للكلاباذي، الرسالة للقشيري، كشف المحجوب للهجويري، الإحياء – المنقذ من الضلال للغزالي، عوارف المعارف للسهروردي، التعريفات للجرجاني، معجم الكاشاني، كتب لابن عربي، معجم الحفني، شطحات الصوفية للبدوي، المعجم الصوفي سعاد الحكيم، كتب عبد الحليم محمود) ثم ترتيبها، وعرضها.

الحدود الزمانية: تتبع التسلسل التأريخي للذوق الصوفي من نشأته في كتب مصنفي الصوفية الأوائل إلى وقتنا المعاصر.

منهج البحث:

سأتبع في هذا البحث المنهج الاستقرائي النقدي على النحو التالي:

١ . استقراء ما يتعلق بالذوق الصوفي كما جاء في مصنفات الصوفية.

٢ . دراسة الانحرافات العقدية في الذوق الصوفي، ثم الرد عليه من خلال نصوص الكتاب والسنة.

خطة البحث: هذا البحث يقع في مقدمة، يتلوها تمهيد، ومطلبان، وخاتمة.

التمهيد: في بيان معنى الذوق في اللغة.

المبحث الأول: الذوق عند الصوفية؛ وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: معنى الصوفية في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: معنى الذوق عند الصوفية.

المطلب الثالث: معنى الذوق عند ابن عربي.

المطلب الرابع: العلاقة بين الذوق والمصطلحات الصوفية: التجلي – المكاشفة – السكر – الفناء – الشطح.

المبحث الثاني: الذوق عند السلف؛ وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى السلف لغة واصطلاحا.

المطلب الثاني: معنى الذوق عند السلف.

المطلب الثالث: الموقف السلفي من الذوق الصوفي.

ثم كانت الخاتمة مع التوصية.

المصدر الذوقي عند الصوفية والموقف السلفي منه

التمهيد:

بيان معنى الذوق في اللغة:

قال «ابن فارس:«« الذال والواو والقاف: أصل واحد وهو اختبار الشيء من جهة تطعم»[(١)].

ويستعمل الذوق في غير المطعوم يقال: هو حَسَن الذَّوْقِ للشّعر: مَطْبُوع عليه. وما ذُقت غَماضاً، ويقال: ذِيقَ كَذِبُه، وتَذَوَّقْت طعم فراقِه [(٢)].

ومن مجموع ما ذكرته معاجم اللغة[(٣)] نخرج بالآتي:

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٢/ ٣٦٤.

(٢) انظر: تاج العروس للزبيدي: ٢٥/ ٣٢٦ – ٣٢٩.

(٣) انظر: كتاب العين: الخليل الفراهيدي ٥/ ٧٩، الصحاح: للجوهري ٤/ ١٤٧٩ – ١٤٨٠، معجم مقاييس اللغة: ٢/ ٣٦٤ – ٣٦٥، مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني ٣٣٣ – ٣٣٤، النهاية في غريب الحديث: مجد الدين الجزري ٢/ ١٧٢، لسان العرب: لابن منظور ٩/ ١١١ – ١١٢، المصباح المنير:

١ – الذوق: إحدى الحواسّ التي يميِّز بها الإنسان طعم الموادّ بواسطة الجهاز الحسِّيّ في الفمّ ومركزه اللِّسان، وأصل الذوق:

وجود الطعم في الفم، ويُعَبرُّ به عن الاخْتِبار، وأصْله فيما يقلُّ تَناوله فإِنَّ ما يَكثُر يُقالُ له: الأَكْل، واخْتير في القرآن لفظ الذَّوْقِ في العَذابِ[1] وذلك: –

– أنه من باب اختبار القليل للحكم على الكثير.

– أن حاسة الذوق هي أشد الحواس؛ وأقواها إدراكا في تذوق الأشياء؛ فاختير كلمة الذوق لحاسة اللمس عن طريق الجلد، تجدر الإشارة إلى أن علماء الدراسات العضوية يجعلون الاحساسات الجلدية تشمل التذوق واللمس لاتفاقهما في كثير من الخصائص ومنها الخلايا الحسية المتنوعة والمتخصصة، وقد بينت الدراسات الفسيولوجية الحديثة أنه توجد في بشرة الإنسان خلايا حسية كثيرة مختلفة متخصصة لاستقبال أنواع معينة من الإحساسات، فبعضها يحس بالحرارة، وبعضها بالبرودة، وبعضها يحس باللمس والضغط، وبعضها يحس بالألم[2].

وفي هذا إشارة إلى معجزة علمية للقرآن الكريم في بيان:

– أن حاسمة اللمس لها تذوقا عن طريق الجلد كما أن للفم تذوقا عن طريق اللسان.

– وإلى وجود أعضاء الحس الخاصة بالإحساس بالألم في الجلد، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ (النساء:٥٦).

٢ – الذَّوْقُ: مباشرة الحاسة الظاهرة أو الباطنة، ولا يختص ذلك بحاسة الفم في لغة القرآن الكريم، ولا في لغة العرب، فالذوق يكون بالفم، وبغير الفم[3] يوضحه:

أ) وردت الكلمة ومشتقاتها في القرآن الكريم في (٦٣) موضعا[4]، استُعْمِلت في الطعام

للفيومي، ١/ ٢١١، القاموس المحيط: للفيروزآبادي ١١٤٣، ١٦، المعجم الفلسفي: جميل صليبا ٥٩٧ – ٥٩٨.

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن ٣٣٣ – ٣٣٤.
(٢) انظر: القرآن وعلم النفس: محمد نجاتي ١٣٨ – ١٣٩.
(٣) انظر: كتاب العين ٥/ ٧٩، لسان العرب ١٠/ ١١١، مجموع الفتاوى ١٠/ ٣٣٤.
(٤) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: محمد عبد الباقي ٣٥٤ – ٣٥٥.

والشـراب في ثلاث مواضـع هـي: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ (الأعراف:٢٢)، ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا﴾ (النبأ:٢٤)، ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾ (ص:٥٧)

أما بقية المواضع فقد استُعملت فيها الكلمة خارج معنى الطعام والشراب، مثل:

﴿فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾ (الطلاق:٩)، ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ (القمر:٤٨)، ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ (آل عمران:١٨٥)[١].

ب) – قد استُعْمِلت كلمة «الذوق» في المعنويات والوجدانيات كالأدب: قال ابن خلدون: «اعلم أن لفظة «الذوق» يتداولها المعتنون بفن البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان، واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم «الذوق» وإنما هو موضوع لإدراك الطعوم ولكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام، كما هو محل لإدراك الطعوم، استعير لها اسمه»[٢].

إلا أن هناك فروقا بين تذوق العمل الأدبي وتذوق الطعام منها:

– أن القارئ لا يمكنه تذوق العمل الأدبي إلا إذا فهمه أولا، أما تذوق الطعام فإنه يقع مباشرة ودون جهد.

– في العمل الأدبي لكل فن حاسته التي تختص بتذوقه: كالمكتوب تتذوقه العين، والمنطوق تكون وسيلة التذوق هي الأذن، وهكذا[٣].

(١) وكذا جاء ﴿الذوق﴾ في السنة منها: حديث رواه البخاري، كتاب: الشهادات، باب: شَهَادَةِ المختبئ، رقم (٢٦٣٩) «حَتَّى تَذُوقِي عَسِيلَتَهُ وَيَذُوقَ عَسِيْلَتَكِ...»

– وأخرج التِّرمذي في: كتاب: الفضائل، باب: في فضل الأنصار وقريش ٥/ ٦٦٩، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ٥٨٣: « حسن صحيح »، عن رسول اللهَّ ﷺ: «اللّهمّ أَذَقْت أول قريش نَكالاً فَأَذِق آخرهم نَوَالا».

– ومنها: ما رواه الترمذي في: كتاب الفتن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في سؤال النبي ﷺ ثلاثا في أمته، ٤/ ٤١٠، وصححه الألباني في صحيح الترمذي رقم (٢/ ٤٦٢)، وفيه: "... وسألته أَنْ لَا يُذِيْقَ بَعضُهُم بَأْسَ بَعْض فمنعنيها".

– وجاء في مسند الإمام أحمد: مُسْنَدُ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بالجنة رقم (٢٥٢٨٢)، لما قدم رسول الله ﷺ المدينة اشتكى أصحابه وفيه: "إِنِّي وَجَدْتُ المَوتَ قَبلَ ذَوْقِهِ...".

(٢) المقدمة: عبد الرحمن بن خلدون ٢/ ٣٨٧ – ٣٨٨.

(٣) الـذوق الأدبي: إبراهيم عوض ٢٢.

المبحث الأول

الذوق عند الصوفية

المطلب الأول

معنى الصوفية في اللغة والاصطلاح

معنى الصوفية لغة:

أ) أصل لفظة الصوفية واشتقاقها:

أثار مصطلح التصوف غالبية مؤلفي علماء أهل السنة والجماعة، ووقفوا منه موقف الرافض؛ لا باعتبار التسمية فقط ولكن باعتبار السلوك والمنهج والنتائج الاعتقادية المعرفية المترتبة عليه وهو الأشد.

وقد بينَّ شيخ الاسلام« ابن تيمية» أن لفظ الصوفية لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وأنه حصل التنازع في «المعنى» الذي أضيف إليه الصوفي[1].

وقد وقع الاختلاف بين الباحثين – ومن الصوفية أنفسهم[2] – أيضاً في أصل التصوف واشتقاقه إلى آراء[3]، ومن خلال استعرض الأقوال في اشتقاق التصوف يتضح أن: الرأي الراجح: نسبة التَّصوف إلى الصوف وذلك:

١ – هو الذي يتفق والاشتقاق اللغوي.

٢ – أن الصوف هو ظاهر لبسهم وحالهم، والمشتهر فيهم[4].

٣ – أنه هو الذي يتفق وحقيقة حالهم – كما يقولون – في تركهم زينة الدنيا، وقناعتهم بسد الجوعة، وستر العورة[5].

٤ – أن حالهم بين سير وطير لتقلبهم في الأحوال وارتقائهم من عال إلى أعلى منه، فلما

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ١١/٥ – ٦.

(٢) انظر مثلا: اللمع: للطوسي ٤٠ – ٤١، التعرف: للكلاباذي ٩ – ١٨، الرسالة القشيرية: للقشيري ٢٧٩ – ٢٨٠، عوارف المعارف للسهروردي ٦٤ – ٦٥.

(٣) انظر الأقوال في اشتقاق التصوف: اللمع ٤١، قوت القلوب ١/٥١٩ – ٥٢٧، مجموع الفتاوى ١١/٦، ١٦، التعرف ١٠، الرسالة القشيرية ٢٧٩ كشف المحجوب: للهجويري ٣٩، ٤٤، عوارف المعارف ٦٤، ٣٠، تلبيس إبليس: لابن الجوزي ١٦١ – ١٦٣، قواعد التصوف: أحمد زروق ٥ – ٦.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى ١١/٦، ١٦، ١٥٩، اللمع ٤٠.

(٥) عوارف المعارف ٦٤.

تعذر تقيدهم لتنوع وجدانهم نسبوا إلى ظاهر اللبسة [١].

٥ – أن الإشارة إلى زيهم فيه سترا لحالهم ومقامهم أن تكثر الإشارة إليه وتتداوله الألسنة، فإنهم إذا قيل: سموا صوفية لذلك يتضمن دعوى، وإذا قيل: سموا صوفية للبسهم الصوف كان أبعد من الدعوى وهو الأليق بحالهم [٢].

ب) تعريف التصوف في اللغة:

ظهر فيما تقدم أن كلمة الصوفي ترجع على الغالب والصحيح إلى لبس الصوف.

وتعريف الصوف لغة:

قال ابن فارس:« صوف: الصاد والواو والفاء أصل واحد صحيح، وهو الصوف المعروف، والباب كله يرجع إليه...، فأما قولهم: صاف عن الشر إذا عدل فهو من باب الإبدال، يقال. صاب إذا مال» [٣].

ومن مجموع ما ذكرته معظم المعاجم اللغوية [٤] في مادة (صوف) يُخلص بالآتي: –

لم يورد أصحاب المعاجم تعريفاً لغوياً لكلمة (تصوف أو صوفية) من حيث الاشتقاق ما خلا صاحب (المصباح المنير) الذي ذكر كلمة صوفية وقال: إنها« كلمة مولدة» [٥].

وخلاصة القول:

- أن كلمة التصوف من حيث الأصل مجهولة الاشتقاق لم يتفق على أصل لها، ولا مصدر حتى عند المتصوفة أنفسهم.
- أن كلمة تصوف المشتقة من الصوف – على الغالب والصحيح – تأتي بمعنى: الصوف المعروف للشاة.
- أن من معاني «صوف» في اللغة الميل والعدول عن الشيء، ولعل هذا المعنى ظاهر في حال الصوفية – في تسميتهم وحالهم وسلوكهم – من أول أمرهم يوضحه:

---

(١) انظر: عوارف المعارف ٦٥، اللمع ٤٠ – ٤١.

(٢) انظر: عوارف المعارف ٦٥.

(٣) مقاييس اللغة ٣ / ٣٢٢، الصحاح ٤ / ١٣٨٨، لسان العرب ٩ / ١٩٩، مفردات ألفاظ القرآن: ٤٩٩، ومادة هذه الكلمة لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة:﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا ﴾ (النحل:٨٠)، المصباح المنير ١/ ٣٥٢، القاموس المحيط ١٠٧١ – ١٠٧٣، الفتوحات الإلهية شرح: أحمد الحسيني م.

(٤) انظر: مراجع الهامش السابق.

(٥) للفيومي ١/ ٣٥٢.

أنه إن صح هذا الاشتقاق في نسبة الصوفية إلى الصوف فقد قام التصوف في أساسه على مخالفة لسلوك الزاهد الكامل محمد ﷺ وذلك للأسباب التالية:

أ) – عدم ثبوت نص صحيح صريح في فضل لبس الصوف، ومن يزعم بلبسه التأسي بالرسول ﷺ، يقال له: نعم لبس رسول الله ﷺ الصوف ولكن ليس زهدا:

– فقد لبس ﷺ جبة الصوف في السفر والغزو [1]؛ ولهذا قال «الأوزاعي»: لباس الصوف في السفر سنة وفي الحضر بدعة [2]، ومعنى هذا أن المداومة عليه في الحضر بدعة [3]؛ ولذا كره السلف تعمد لبس الصوف ولزومه في أغلب الأحوال، كما كرهه جماعة من مشايخ الصوفية[4].

– أن النبي ﷺ قد لبس الصوف لبرد ثم طرحه: فعن مطرف ﷺ أن «عائشة »رضي الله عنها: « صَنَعْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بُرْدَةً سَوْدَاءَ فَلَبِسَهَا فَلَمَّا عَرَقَ فِيهَا وَجَدَ رِيحَ الصُّوفِ فَقَذَفَهَا، قَالَ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَكَانَ تُعْجِبُهُ الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ "[5].

ب) – وفي الصحيح « كَانَ أَحَب الثيَاب إِلَى النبِي ﷺ أَن يَلبَسَهَا الحِبَرَة »[6].

والحِبَرَة: «هي بكسر الحاء وفتح الباء وهي ثياب من كتان أو قطن»[7].

جـ) – وقال ﷺ :«عَلَيْكُمْ بِالْبَيَاضِ مِنْ الثِّيَابِ، فَلْيَلْبَسْهَا أَحْيَاؤُكُمْ وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ، فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ»[8].

---

(١) انظر: صحيح البخاري: كتاب: اللباس، باب: باب لبس جُبة الصوف في الغزو رقم (٥٤٦٣)، فتح الباري: ١٠/٢٦٨ – ٢٦٩.

(٢) مجموع الفتاوى ١١/ ٥٥٤.

(٣) المرجع السابق ١١/٥٥٥.

(٤) انظر: تلبيس إبليس: ١٨٨.

(٥) رواه أبو داود: كتاب: اللباس، باب في السواد، رقم (٤٠٧٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم (٤٠٧٤).

(٦) رواه البخاري: كتاب: اللباس، باب: البرود والحبر والشملة، رقم (٥٣١٨)، وانظر: فتح الباري ١٠/٢٧٦ – ٢٧٧، شرح صحيح مسلم: للنووي ١٤/ ٥٦.

(٧) شرح صحيح مسلم: كتاب: اللباس والزينة، باب: فضل لباس ثياب الحبرة ١٤/٥٦، وانظر: فتح الباري: ١٠ / ٢٧٦.

(٨) رواه النسائي، كتاب: الزينة، الأمر بلبس البيض من الثياب، رقم (٥٣٢٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، رقم (٥٣٣٨).

وبهذا يظهر مخالفة من يلبس الصوف من الصوفية، فقد كان ﷺ أحب الثياب إليه ثياب كتان أو قطن، وأما ما يروى في فضل لبس الصوف فمن الموضوعات التي لا يثبت منها شيء[1].

د) – مخالفة لسلوك من سلف من علماء الأمة الأعلام فالصوف ليس من لباس السلف بل كانوا يلبسون الثياب المتوسطة لا المرتفعة، ولا الدون ويتخيرون أجودها للجمعة، والعيدين، ولقاء الإخوان، وقد كانوا يؤثرون البذاذة إلى حد، وربما لبسوا خلقان الثياب في بيوتهم، فإذا خرجوا تجمّلوا، ولبسوا مالا يشتهرون به، ومن رّقع منهم إنّما رقع ضرورة[2].

هـ) – التشبه بغير المسلمين في أمر تعبدي: وقد قال رسول الله ﷺ : " مَنْ تَشَبَّه بِقَوم فَهُو مِنْهُم» [3]:

فمن الثابت أن لبس الصوف كان من تقاليد زُهّاد الديانات الأخرى الذين كانوا ينقطعون في الصوامع للعبادة والتنسك، روي عن «ابن سيرين» أنه بلغه أن أقواما يتحرون لباس الصوف، فقال:« أظن هؤلاء بلغهم أن المسيح كان يلبس الصوف فلبسوه، وهدي نبينا ﷺ أحب إلينا من هدي غيره»[4].

وقال «أبو العالية» لرجل عليه ثوب صوف: «إنما هذه ثياب الرهبان إن كان المسلمون إذا تزاوروا تجملوا »[5].

و) – يخشى على من يلتزم بلباس الصوف دخول الرياء عليه بإشعار الناس أنه من الزهاد؛ لذا كره الإمام «مالك» لبس الصوف لمن يجد غيره لما فيه من الشهرة بالزهد؛ لأن إخفاء العمل أولى، وهو الأصل في العبادات، ولم ينحصر التواضع في لبسه بل في القطن وغيره ما هو دون ثمنه[6].

---

(١) انظر: تلبيس إبليس ١٩٤، الموضوعات: عبد الرحمن بن الجوزي ٣/٤٨ – ٥٠، سلسلة الأحاديث الضعيفة وأثرها السيء في الأمة: محمد الألباني ٩/٨٢ – ٨٣

(٢) انظر: تلبيس إبليس :١٩٨، مجموع الفتاوى ١١/٥٥٥.

(٣) رواه أبو داود: كتاب: اللباس، باب في لبس الشهرة، رقم (٤٠٣١)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم (٤٠٣١).

(٤) مجموع الفتاوى ١١/٥٥٥، وانظر: زاد المعاد ١/ ١٤٣.

(٥) تلبيس إبليس: ١٩٦.

(٦) فتح الباري: كتاب: اللباس، باب لبس جبة الصوف في الغزو ١٠/ ٢٦٩.

ونظر «محمد الكتاني» إلى أصحاب المرقعات فقال:« إخواني إن كان لباسكم موافقا لسرائركم لقد أحببتم أن يطلع الناس عليها، وإن كانت مخالفة لسرائركم فقد هلكتم ورب الكعبة »[1].

ز) – إن لبس الصوف، وترقيع الثوب عند الحاجة حسن من أفعال السلف [2]، وقد كان في الصوفية من إذا لبس ثوبا خرق بعضه، وربما أفسد الثوب الرفيع القدر، وكان من عادة «الشبلي» إذا لبس شيئا خرق فيه موضعا [3].

ح) – اللباس الذي يزري بصاحبه يتضمن: إظهار الزهد، وإظهار الفقر، وكأنه لسان شكوى من الله عز وجل، ويوجب احتقار اللابس، وكل ذلك مكروه ومنهي عنه[4]، ويتضمن ادعاء الفقر، وقد أمر الانسان أن يظهر نعمة الله عليه[5].

معنى الصوفية في الاصطلاح:

يمكن القول – بعد البحث والدراسة –: إنه من الصعب وضع تعريف للتصوف في ظل هذا التفاوت الكبير الذي يظهر في تعريف الصوفية بين القابلين للتصوف على اختلاف بينهم، وبين الرافضين على اختلاف بينهم أيضا [6] ذلك أن التصوف درجات، «لذا صار لفظ التصوف لفظًا مجملاً يجب التحقيق عند إطلاقه، فهو لفظ يدخل فيه من هو صِدِّيق ومن هو زنديق، فمن صَدَّق الرسولَ ﷺ فيما أخبر وأطاعه فيما أمر صار صدِّيقًا، ومن أعرض عن خبره وأمره حتى أخبر بنقيض ما أَخْبرَ وأمَرَ بخلاف ما أَمَر صار زنديقًا»[7].

ولعل من المرجح – والله تعالى أعلم – أنّه:

اسم للزهد المتطور بعد قرون الخير الثلاثة حيث ابتدأ كنزعات فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة حتى اتصلت به ثقافات خارجية امتزجت بحركة الزهد والمجاهدة، ثم تطورت تلك النزعات بعد ذلك حتى صارت طرقا مميزة معروفة باسم الصوفية، فولدت نوعاً جديداً

(١) تلبيس ابليس ١٩٠، وانظر :١٩٧– ١٩٨.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى ١١: ٥٥٦ .
(٣) انظر: تلبيس إبليس ٢٠٣.
(٤) انظر: مجموع الفتاوى ١١: ٥٥٦ .
(٥) انظر: تلبيس إبليس ٢٠٣.
(٦) هذا موضوع بحث يجري العمل عليه الآن وهو التصوف بين القبول والرفض.
(٧) الرد على الشاذلي في حزبيه: شيخ الإسلام ابن تيمية ٧٤ – ٧٥.

من التصوف، وأصبح الصوفي هو من يسعى إلى تربية النفس والسمو بها بغية الوصول إلى معرفة الله تعالى بالكشف والذوق والمشاهدة لا عن طريق اتباع الوسائل الشرعية، بمنهجية تتفق والفلسفات الوثنية الهندية والفارسية واليونانية المختلفة.

المطلب الثاني

معنى الذوق عند الصوفية

يرى الصوفية أنفسهم أنهم هم الذوقيون؛ لأن من خصائص الطريق الصوفي أنه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة بالتعلم، بل بالذوق، فعين اليقين وهو معرفة الله تعالى معرفة يقينية لا تحصل إلا عن طريق الذوق(١).

بهذا يظهر ما للذوق من مكانة خطيرة في الفكر الصوفي، ولقد تعددت التعاريف له، فإلى أقوال الصوفية في معنى الذوق كما جاءت في كتبهم بدءا بمشايخ الطريق.

الذوق عند الصوفية:

ذهب «الطوسي» إلى أن الذوق والشرب طريقان لبحر المحبة والقرب من الله تعالى، وأن الذوق ابتداء الشرب ثم بعده الري، قال: الذوق: «ابتداء الشرب»، قال ذو النون: « لما أراد أن يسقيهم من كأس محبته ذوَّقهم من لذاته، وألعقهم من حلاوته» (٢).

وبيّن «القشيري» أن الصوفية يعبرون بالذوق عما يجدونه من ثمرات التجلي(٣)، ونتائج الكشوفات، وأول ذلك الذوق، ثم الشرب، ثم الري، فصفاء معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعاني، ووفاء منازلتهم يوجب لهم الشرب، ودوام مواصلاتهم يقتضي لهم الري، ومن قوى حبه تسرمد شربه(٤).

ومن الغريب «أن الكلاباذي» في كتابه «التعرف » – الذي قيل فيه لولا التعرف ما عرف التصوف – لم يشر فيه إلى الذوق والشرب، كما جاء عرضه للسكر(٥)وهو في نظر الصوفية

---

(١) انظر: الحكيم الترمذي واتجاهاته الذوقية: وجيه عبدالله ٤٠٤، فصوص الحكم: لابن عربي، بتحقيق: أبو العلاء عفيفي ١٢٢، قضية التصوف المنقذ من الضلال ٣٨٣، ٣٧٩، إحياء علوم الدين ١/ ١٠٤.

(٢) اللمع: ٤٤٩.

(٣) التجلي: هو إشراق أنوار إقبال الحق على قلوب المقبلين عليه، انظر: اللمع: ٤٣٩، كشف المحجوب: ٤٧٢، التعريفات: ٧٣.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية: ٧٢ – ٧٣.

(٥) السكر: سيأتي الحديث عنه.

نهاية الشرب بإشارات سريعة، وبأسلوب وعرض يخالف مفهوم الذوق والشرب الذي وجد عند المتقدمين فضلا عن المتأخرين [(١)].

أما «الهجويرى» فإنه أعطي الذوق معنى هو أقرب إلى معناه الشرعي فقال:« الذوق مثل الشرب، وقال في الشرب: الصوفية تسمي حلاوة التقوى، وجمال الكرامة، ولذة الأنس شربا»[(٢)].

أما الذوق عند الغزالي: « فهو كالمشاهدة والأخذ باليد، ولا يوجد إلا في طريق الصوفية»[(٣)].

وقال «الجرجاني: «والذوق في معرفة الله: عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه، يفرقون به بين الحق

والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره»[(٤)].

وبدراسة تعاريف الصوفية للذوق يظهر أن معنى الذوق الصوفي:

أولا: الذوق له إطلاقان:

١ **الذوق العام:** يطلق على الحالة الوجدانية التي يكون عليها الصوفي عند منازلته – معايشته – لحال من الأحوال أو مقام من المقامات، فيدرك هذه الأحوال، وتلك المقامات عن تجربة وابتلاء لا عن تسامع وعلم مجرد، فيقال مثلا: فلان يذوق القرب، أو الشوق [(٥)].

قال أبو سعيد الأعرابي:« والمحبة والشوق والقرب كل ذلك يدق وصفه، ولا يدرك كنهه إلا من ذاقه» [(٦)].

٢ـ الذوق الخاص: وهو المقصود عند الصوفية عند الإطلاق وهو:

– حال يفجأ العبد في قلبه، وهو نور عرفاني يقذف في قلوب الأولياء وهو ناتج عن تجلي

(١) انظر: التعرف ١٣٥ – ١٣٦.
(٢) كشف المحجوب: ٤٧٥ .وانظر: عوارف المعارف: ٥/ ٢٥١.
(٣) قضية التصوف المنقذ من الضلال: ٣٨٥.
(٤) التعريفات ١٤٤، وانظر: معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني ١٨١، معجم مصطلحات الصوفية للحفني ١٠٤.
(٥) انظر: المصادر العامة للتلقي عند الصوفية: صادق سليم ٥٤١، وانظر: اللمع: ٣٢ – ٦٦ – ٣٨٨، الرسالة القشيرية ٥٧، عوارف المعارف ٥/ ٢٥١، التعريفات ١١٠، قضية التصوف المنقذ من الضلال: ٣٨٣، ٣٧٩، إلجام العوام: للغزالي ٤١ – ٤٢، ٥٠، ٦١ – ٦٥.
(٦) اللمع ٣٨٨.

الله تعالى على قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل من غير نظر في كتاب، ولا يوجد إلا في طريق الصوفية.

– أداة المعرفة عند الصوفية لا الشرع ولا العقل، وهي ملكة خاصة بها تدرك الحقائق المستترة وراء المحسوسات، وهذا الذوق أشبه بومضة سريعة الزوال، ولا يكون ذلك إلا للخاصة وتتفاوت درجاته بينهم[١].

– وهو أول مبادي التجلي[٢]، وعلى مراتب:

١ – الذوق: وهو ابتداء الشرب، وهو أول مبادئ التجلي ويكون عند أدنى لبث للتجلي الإلهي في قلب السالك، ويتمثل في صفاء معاملاتهم[٣].

٢ – الشرب: وهو بين الذوق والري، ويتمثل في وفاء منازلتهم فمن قوى حبه عندهم تسرمد شربه[٤].

٣ – الري: وهو نهاية الشرب، ويتمثل في دوام مواصلاتهم[٥].

ثانيا: لا يتم الذوق إلا بتجربة روحية وحال؛ فالتصوف ذوق ومشاهدة يصل الإنسان إليهما عن طريق الخلوة والرياضة .

والمجاهدة بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى؛ لذا فالصوفية هم الذوقيون؛ لأن من خصائص الطريق الصوفي أنه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة بالتعلم؛ بل بالذوق والحال[٦].

ومن هذا كان اصطلاحهم المشهور: «من ذاق عرف» أي: من جعل الذوق وحده الوسيلة إلى المعرفة هو العارف الكامل حقاً، وكان من العارفين بكنه الحقائق الربانية، أما من يستمد معرفته من الدين فهو من أهل الظاهر المحجوبين عن إدراك كنه الحقيقة الإلهية الكبرى،

(١) انظر: الحكيم الترمذي واتجاهاته الذوقية: وجيه عبد الله ٤٠٢ – ٤٠٣.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية ٧٢ – ٧٣، معجم الكاشاني ١٨، معجم الحفني ١٠٤، وسيأتي الحديث عن التجلي.

(٣) انظر: اللمع ص٤٤٩، الرسالة القشيرية ٧٢ – ٧٣، كشف المحجوب ص٤٧٥.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية ٧٢ – ٧٣.

(٥) انظر: الهامش السابق.

(٦) انظر: إحياء علوم الدين ١/ ١٠٤، الحكيم الترمذي واتجاهاته الذوقية: وجيه عبد الله ٤٠١ – ٤٠٤.

ويقولون: علم الأذواق لا علم الأوراق[1]، ولهم الأقوال المشهورة في ذم طلب العلم الشرعي؛ لأن علومهم بلا واسطة[2].

ثالثا: لما كان الذوق عند الصوفية أساسا في التلقي للوصول إلى الحقائق، وكان كل سالك متذوق يتحدث من خلال تذوقه لحاله ومقامه الخاص، أدى هذا إلى تعدد الأذواق وتنوعها فالذوق ليس له نهاية؛ لأن تجليات الحق غير متناهية، وكان الطريق إلى الله كنفوس بني آدم[3].

رابعا: ظهر ثمة فروق بين الصوفية أنفسهم في تعريفهم للذوق بمعناه الخاص في أمور هي موضوع المطلب التالي وهو:

المطلب الثالث

الذوق عند «ابن عربي»

كان «ابن عربي»(ت:٦٣٨هـ) – الذي استوعب في كتبه التجربة الصوفية السابقة فاختصر قرونا ستة سابقة وقضى على قرون ستة لاحقة [4] – أكثر الصوفية توسعا في

(١) انظر: إحياء علوم الدين ١/ ١٠٤، فصوص الحكم: لابن عربي، بتحقيق: أبو العلاء عفيفي ١٢٢، إيقاظ الهمم بشرح الحكم: أحمد الحسيني ص ٧٣، قضية التصوف المنقذ من الضلال ٣٨٣، ٣٧٩.

(٢) صدّ الشيطان الصوفية عن العلم وأراهم أن المقصود العمل، فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات، انظر: تلبيس إبليس ١٦١ – ١٦٣، وكان من تخبطهم أن نفروا الناس عن العلم الشرعي بوصفهم له بأوصاف منفرة حيث وصفه بعضهم بأنه آفة المريد، قال أبو بكر الوراق: آفة المريد ثلاث : التزويج، وكتابة الحديث والأسفار، الرسالة القشيرية ٢٠٣، ٢٧٦، وانظر:تلبيس إبليس ٣٢٠ – ٣٣٠، الفتوحات المكية ١/ ٣٧، وهذا الموقف من الصوفية من العلم: إما لخطأ منهم، وظنهم أن في طلب العلم مشغلة عن العبادة والاخلاص، أو لسوء مقصد بعضهم في نشر البدع، فعلم الكتاب والسنة نور ينكشف للناس به حقائق طرقهم، وزيف أقوالهم، ولعل هذا مما يفسر العداء الذي ناصبوه للفقهاء، ووصفهم بأنهم محجوبون لا يفقهون طريقهم، ولم يكتف المتصوفة بالتنفير من علم الشريعة، بل رفعوا جهلهم هذا على الكتاب والسنة، قال أبو يزيد –إن صح عنه – ناعيًا على علماء الشريعة مفاخرًا لهم:« أخذتم علمكم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت»، انظر: الفتوحات المكية ١/ ٢٨٠، وانظر : ٢/ ٣٧٥ – ٣٧٦، اليواقيت والجواهر: للشعراني ١/ ٣٩، النور من كلمات أبي طيفور للسهلجي المنشور في شطحات الصوفية :عبد الرحمن البدوي ١٠٠ .

(٣) انظر: رسائل ابن عربي: تحقيق: سعيد عبد الفتاح ١٧، شرح فصوص الحكم: للقاشاني ١٢٤، هذه هي الصوفية: عبد الرحمن الوكيل ٢٠، أبو بكر الشبلي: عبد الحليم محمود ٧، قاموس المصطلحات الصوفي: أيمن حمدي ٦٩.

(٤) انظر: المعجم الصوفي: سعاد الحكيم ١٦.

الحديث عن الذوق بالاصطلاح الصوفي الخاص.

ويمكن تناول معنى الذوق عند ابن عربي» على النحو الآتي:

أولا: عرّف «ابن عربي» الذوق بأنه:« أول مبادي التجلي، وهو حال يفجأ العبد في قلبه، فإن أقام نفسين فصاعدا كان شربا »[١].

وقال في الشرب: « أما الشرب فهو بين مقام الذوق والري، الشرب هو ما تسفيده في النفس الثاني مضافا إلى ما استفدته في نفس الذوق بالغا ما بلغ على مذهب من يرى الري، ومن لا يراه»[٢].

وأبان أن« الري » موضع اختلاف بين الصوفية حيث ذكر عن بعضهم أنه شرب فارتوى، ونقل عن آخرين أن الري محال، وكل نطق بحاله، ولكل صاحب قول وجه صحيح في الطريق [٣].

وبهذا يظهر ثمة فروق بين الصوفية و«ابن عربي» في تعريفهم للذوق بمعناه الخاص في أمور منها:

أ) – أن الذوق عند «ابن عربي» حال ومقام[٤]، بينما هو عند مصنفي الصوفية حال.

ب) – جعل «ابن عربي» لكل جارحة علم من علوم الأذواق يخصها من عين واحدة، حيث بين أن العلوم الإلهية الذوقية الحاصلة لأهل الله مختلفة باختلاف القوى الحاصلة منها مع كونها ترجع إلى عين واحدة، كالماء حقيقة واحدة في الطعم باختلاف البقاع، فمنه عذب فرات ومنه ملح أجاج، وهو ماء في جميع الأحوال[٥].

جـ) – ذهب «ابن عربي» إلى أن العلم والذوق في التجلي فالذوق لا يكون إلا عن تجل[٦].

(١) الفتوحات المكية: الباب الثامن والأربعون ومائتان في الذوق ٢/٥٤٧ – ٥٤٨.

(٢) المرجع السابق: الباب التاسع والأربعون ومائتان في الشرب ٢/٥٥٠.

(٣) المرجع نفسه: الباب الثامن والأربعون ومائتان في الذوق: ٢/٥٤٧ – ٥٤٨، ٢/٥٥٠.

(٤) الباب التاسع والستون في معرفة أسرار الصلاة ١/ ٤٤٨، وانظر:٢/٥٤٧ – ٥٤٨، ٢/٢٤٩.المعجم الصوفي ٤٩٥.

(٥) انظر: فصوص الحكم ١٠٦ – ١١٤.

(٦) انظر: الفتوحات المكية: الباب السادس والأربعون ومائتان في السكر ٢/ ٥٤٦. وانظر: المعجم الصوفي ٤٩٤.

د) – قسّم الذوق حسب التجلي إلى أقسام[1]:

الأول: الذوق الخيالي إن كان التجلي في الصور، وأثره في النفس، وأثر ذوق النفس المجاهدات البدنية من الجوع، وقيام الليل، والجهاد في سبيل الله.

الثاني: الذوق العقلي إن كان التجلي في الأسماء الإلهية والكونية، وأثره في القلب، وأثر ذوق العقل الرياضات النفسية وتهذيب الأخلاق، وهذا الذوق أتم في الحكم من القسم الذي قبله.

الثالث: التجلي في المعنى: فعين مبدئه عينه، ما له بعد المبدأ حكم يستفيده الإنسان بالتدريج كما يستفيد معاني تلك الصورة المتجلي فيها، أو معاني الأسماء، وهذا الذوق لا يحتاج إلى رياضة، ولا مجاهدة.

هـ) – ومن الفروق بين الصوفية في تعريفهم للذوق بمعناه الخاص موقفهم من ﴿الشرب﴾: فالصوفية المتقدمين يربطون الذوق والشرب بأمر معنوي لا حسي فيربطونه بالمحبة أحيانا: «كالطوسي» و «القشيري»، أو بالأنس «كالهجويري» فيكون الشرب من مهمة الأرواح.

أما ابن عربي:« فقد جعل الشرب حسي، ولأنواع من الأشربة الحسية، يوضحه:

و) – التفصيل في الشرب وذلك:

١– نوعية الشرب:

لم يتطرق أحد من شيوخ الطريق إلى ذلك بينما ذهب «ابن عربي» إلى أن الشرب قد يكون عن عطش، وقد يكون عن شهوة والتذاذ لا شرب ظمأ ولا دفع ألمه كشرب أهل الجنة [2].

٢– نوع المشروب:

– حيث جعل «ابن عربي» المشروب علوم تتجلى للعارفين في صور أربعة مشروبات محسوسة هي اللبن والماء، والعسل، والخمر [3].

واستدل على تجلي العلوم في صور هذه المشروبات بأن الجنة كانت دار الرؤية والتجلي

---

(١) انظر: الفتوحات المكية: الباب الثامن والأربعون ومائتان في الذوق ٣/ ٥٤٧ – ٥٤٩.

(٢) انظر: التاسع والأربعون ومائتان في الشرب: ٢/ ٥٥٠ – ٥٥١.

(٣) انظر: المرجع السابق ٢/ ٥٥٠، شرح فصوص الحكم ٢٦، ٣٣.

وما ذكر الله تعالى فيها سوى أربعة أنهار: «أَنْهارٌ من ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وأَنْهارٌ من لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيرَّ طَعْمُهُ، وأَنْهارٌ من خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وأَنْهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى».

– وأنه لكل تجل صنف مخصوص من الناس، وأحوال مخصوصة في الشخص الواحد، فمنه ما هو لأصحاب المنابر وهم الرسل، ومنه ما هو لأصحاب الأسرة وهم الأنبياء، ومنه ما هو لأصحاب الكراسي وهم الورثة الأولياء العارفون، ومنه ما هو لأصحاب المراتب وهم المؤمنون، وما ثم صنف خامس وكل صنف يفضل بعضه على بعضه.

– وبيّن أن العلوم وإن كثرت فإن هذه الأربعة تجمعها، وهي مجال إلهية في منصات ربانية في صور رحمانية، وهي في حق قوم مع الأنفاس دائما وهم الذين لا يقولون بالري، وفي حق قوم إلى أمد معين عينه لهم وهم الذين يقولون بالري.

– وأن من الناس من يكون مشروبه واحدا مما ذكر لا ينتقل عنه أبدا، ومنهم من يتنوع في المشروبات وهو الأتم.

– وأن الشرب يختلف باختلاف المشروب فإن كان المشروب نوعا واحدا فإنه يختلف باختلاف أمزجة الشاربين وهو استعدادهم [١].

ثانيا: اتفق «ابن عربي» مع «الغزالي» في أنه يحصل في الذوق معرفة إلهية من غير الرجوع إلى الشرع، بل هي مقدمة عليه، ولها تأول نصوص الشرع بما يتفق وهذه المعرفة الكشفية، أما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد فلا يستقر له قدم، ولا يتعين له موقف» [٢] وفي هذا يقول» ابن عربي:« « علم الأذواق: هو علم لا عن فكر، وهو العلم الصحيح، وما عداه فحدس وتخمين ليس بعلم أصلاً »[٣].

ثالثا: قرر «ابن عربي» أن اليقين الذي يسعى إليه السالك – عند الصوفية –؛ ليصل إليه على ثلاث مراتب[٤]:

---

(١) انظر: الفتوحات ٢/ ٥٥٠.، شرح فصوص الحكم ١٢٦.

(٢) إحياء علوم الدين: ١/ ١٠٤.

(٣) فصوص الحكم ١٧٣، وانظر: الفتوحات المكية: الفصل الخامس والأربعون ٢/ ٤٧٣، وانظر ٢/ ٦٠٨.

(٤) انظر الفتوحات المكية: الباب التاسع والستون ومائتان في معرفة علم اليقين ٢/ ٥٧٠، وانظر: ٢/ ٢٠٤، ٣/ ٢٥٧، شرح فصوص الحكم للقاشاني ٣٣، ٦٨، ١٢٥، الرسالة القشيرية ٨٥، كشف المحجوب ٦٣، عوارف المعارف ٢٥٠.

١- علم اليقين: وهو يأتي عن طريق الدليل النقلي: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾(التكاثر:٥).

٢- عين اليقين: وهو يأتي عن طريق المشاهدة والكشف: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ (التكاثر:٧).

٣- حق اليقين: وهو ما يتحقق عن طريق الذوق:﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ (الواقعة:٩٥).

المطلب الثالث

علاقة الذوق الصوفي بالمصطلحات الصوفية:

التجلي – المكاشفة – السكر – الفناء – الشطح

لقد دأب مشايخ الصوفية إذا واجهوا إلزامات خطيرة لأقوالهم المخالفة للنص الشرعي – والتي نتجت عن سلوكهم طريق التعبد والسلوك الذوقي كقولهم في التجلي والسكر والكشف والفناء والشطح ولم يجدوا في ثنايا الشرع ما يصحح منهجهم الذوقي – أن يزعموا أنّ هذه تجربة شخصية مقصورة على أهل الخصوص منهم، تقصر عنها العبارة، ولا يمكن أن يدرك حقيقتها إلا من عاشها، إذ السلوك والتصوف تجربة، والتجربة شعور، والشعور ليس منطقاً ولا برهاناً إنما هو تعرف، وقالوا : من ذاق عرف، وبالتالي فإن من لم يذق لم يعرف، وعلى هذا فإن كل ما ينقل عن الصوفية – من أفكار وسلوك تتناقض مع العقل والفكر فضلاً عن مناقضته للشرع – يجب أن يتلقى بالتسليم من هؤلاء الخاصة الذين عاشوا التجربة بكل أبعادها، وهم وحدهم القادرون على تفسير أمثال هذه الشطحات وغيرها.

ومن المصطلحات التي ارتبطت بحديث الصوفية عن الذوق: التجلي – السكر – الكشف – الفناء – الشطح.

وفيما يأتي بيان لهذه العلاقة:

أولا: العلاقة بين الذوق والمصطلح الصوفي التجلي:

١. الذوق هو أول مبادي التجلي [١].

٢. التجلّي هو:إشراق أنوار إقبال الحق على قلوب المقبلين عليه[٢].

٣. التجلي عند متقدمي الصوفية على ثلاثة أحوال:

(١) انظر: الرسالة القشيرية ٧٢ – ٧٣، معجم الكاشاني ١٨، معجم الحفني ١٠٤.

(٢) انظر: اللمع :٤٣٩، كشف المحجوب:٤٧٢، التعريفات: ٧٣.

- تجلي ذات: وهي (المكاشفة) كشوف القلب في الدنيا؛ وكشوف العيان في الآخرة.

- وتجلي صفات الذات (وهي موضع النور)، وهو أن تتجلى له قدرته عليه فلا يخاف غيره، وكفايته له فلا يرجو سواه.

- وتجلّي حكم الذات (وهي الآخرة وما فيها)(١).

وعند متأخري الصوفية التجلي ثلاث مراتب(٢):

الأولى: تجلي ذات ما يكون مبدؤه الذات ومنتهاه إليها من غير اعتبار صفة من الصفات معها وهو تجلي الذات وحدها لذاتها وهي الحضرة الأحدية التي لا نعت فيها ولا رسم.

الثانية: التجلي الذاتي الذي يظهر به أعيان الممكنات التي هي من شؤن الذات لذاته تعالى وهو التعين الأول بصفة العالمية والقابلية، وللحق بهذا التجلي نزول من الحضرة الأحدية إلى الحضرة الواحدية بالنسب الأسمائية.

الثالثة: التجلي الشهودي: وهو ظهور الحق بصور أسمائه في الأكوان التي صورها، وذلك الظهور هو نفس الرحمن الذي يوجد به الكل.

وسر التجليات عندهم وبقلمهم: هو شهود كل شيء في كل شيء، وذلك بانكشاف التجلي الأول للقلب، فيشهد الأحدية الجمعية بين الأسماء كلها؛ لاتصاف كل اسم بجميع الأسماء، لاتحادها بالذات الأحدية، وامتيازها بالتعينات التي تظهر في الأكوان التي هي صورها، فيشهد كل شيء في كل شيء(٣).

٤. أما التجلي عند «ابن عربي» فهو:

- ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب بعد الستر(٤)، وهو على مقامات مختلفة(٥).

- الذوق أول مبادي التجلي المؤدي إلى الشرب، والشرب الوسط من التجلي، والري غايات التجلي في كل مقام(٦).

---

(١) انظر: التعرف ١٤٠ – ١٤١، اللمع ٤٣٩، الرسالة القشيرية ٧٤، عوارف المعارف ٥/ ٢٤٩، معجم الحفني ٤٢ – ٤٣. معجم الكاشاني:١٧٣ – ١٧٤. وانظر: ١٢١ – ١٢٢.

(٢) معجم الحفني ١٧٣ – ١٧٤.

(٣) () انظر: معجم الكاشاني: ١٢١، معجم الحفني ١٢٩.

(٤) الفتوحات المكية ٢/ ١٣٢.

(٥) انظر المرجع السابق: الباب السادس ومائتان في حال التجلي ٢/ ٤٨٥.

(٦) انظر: المرجع نفسه٢/ ١٣٢.

– العلم والذوق في التجلي؛ فالذوق لا يكون إلا عن تجل[1].

– جعل لكل تجلٍ مبدأ، وقسم هذا التجلي إلى أنواع: فقال: «لكل تجل مبدأ هو ذوق لذلك التجلي، ... التجلي الإلهي في الصور، أو في الأسماء الإلهية، أو الكونية ليس غير ذلك، فإن كان التجلي في المعنى فعين مبدئه عينه»[2].

– قسّم الذوق حسب التجلي إلى أقسام تقدم ذكرها.

ثانيا: العلاقة بين الذوق والمصطلح الصوفي المكاشفة:

المكاشفة هي نهاية الذوق والتجلي[3]، وهي نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة، ويمكن تناول العلاقة بين الذوق ومصطلح المكاشفة على النحو الآتي:

١. المكاشفة: شهود الأعيان وما فيها من الأحوال في عين الحق، فهو التحقيق الصحيح بمطالعة تجليات الأسماء الإلهية[4].

٢. من الفرق بين الذوق والمكاشفة[5]:

– الكشف يختص بالقلوب أحيانا من خلال رؤية القلب لبعض الأمور عن طريق المكاشفة كرؤية النبي ﷺ يقظة، وقد تتعلق المكاشفة بالعين البصرية كرؤية الخضر والملائكة، وقد يتعلق الكشف بالسمع كما في الهواتف، أما الذوق فليس لبصر العين وسمع الأذن فيه نصيب، بل يختص بالقلب عن طريق التجلي الإلهي، فالكشف أعم من هذا الوجه فكل ذوق كشف وليس كل كشف ذوق.

– رؤية القلب لله تعالى في حال المكاشفة يكون بسعي العبد لإزالة الحجب، أما في حال الذوق فإنه بفجأة التجلي.

– المكاشفة تكون في ثلاثة أحوال النوم واليقظة وحالة متوسطة بينهما، بينما الذوق فإنه يكون في حال اليقظة.

---

(١) انظر: الباب السادس والأربعون ومائتان في السكر ٢/ ٥٤٦.

(٢) الباب الثامن والأربعون ومائتان في الذوق، ٢/٥٤٨.

(٣) انظر: الفتوحات المكية: الباب الثامن والأربعون ومائتان في الذوق: ٢/٥٤٧ – ٥٤٨، معجم الكاشاني: ١٨، معجم الحفني ١٠٤، التعريفات ١٤٤.

(٤) معجم الكاشاني ٣٤٦. الرسالة القشيرية ٧٥، الفتوحات المكية ٢/ ١٣٢، معجم الحفني ٢٠٨.

(٥) انظر: الفتوحات المكية ٢/٥٤٨، المصادر العامة للتلقي ٥٤٤ – ٥٤٥.

٣ . علم المكاشفة عند الصوفية هو علم الباطن، وهو غاية العلوم، قال "الغزالي ": "قال بعض العارفين: من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى نصيب منه التصديق به والتسليم لأهله، وأقل عقوبة من ينكره أنه لا يذوق منه شيئا، وهو علم الصديقين والمقربين »[١].

٤ . بالمكاشفة يرتفع الغطاء ويتضح له جلية الحق في هذه الأمور إيضاحاً يجري مجرى العيان[٢] وينكشف للصوفي الواصل سر الربوبية ذلك السر الكبير الذي تواصوا بشدة على كتمانه، فنهاية هذه المكاشفة معرفة أنه ليس في الوجود غير الله، كما قال الغزالي: « فإذا نظرت من هذا المقام، عرفت أن الكل منه مصدره، وإليه مرجعه، فهو الشاكر وهو المشكور، وهو المحب وهو المحبوب »[٣].

وقال: « فإن قلت: كيف يتصور ألا يشاهد إلا واحداً، وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة، وهي كثيرة، فكيف يكون الكثير واحداً؟ فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات، وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب، فقد قال العارفون: إفشاء سر الربوبية كفر» [٤].

ولهذا كانت المصطلحات الصوفية وما اتسمت به من غموض ورمزية لا لزعمهم أن التصوف تجربة شخصية مقصورة على أهل الخصوص من الصوفية تقصر عنها العبارة، ولا يمكن أن يدرك حقيقتها إلا من عاشها [٥]، بل صونا للحقائق – وهي سر الربوبية كما ظهر من نصوصهم – التي يمكن أن تذاع[٦]، والنفوس حتى لا تباح[٧] ؛ لذا استعمل الصوفية

(١) الإحياء: ١/ ١٩.
(٢) انظر: الإحياء: ١/ ١٩، وانظر: قضايا التصوف المنقذ من الضلال ٣٧٨.
(٣) الإحياء: ٤/ ٨٦، وانظر ١/ ٨٨.
(٤) المصدر السابق ٤/ ٤٢، وانظر: رسائل ابن عربي ٤٣٣، ٩٣٣ – ٠٤٣، معجم الكاشاني ٠٢١ – ٢٢١، اليواقيت والجواهر ١/ ٩٣ – ٠٤، ٦٤، ٣٥.
(٥) انظر: اللمع ٣٢ –، ٣٩، والتعرف ١٠١ – ١٠٢، الرسالة القشيري ٥٣، كشف المحجوب ٤٤٣، الفتوحات المكية ١/ ٢٨١، اليواقيت والجواهر ١/ ٣٧ – ٤٦.
(٦) انظر: رسائل ابن عربي ص: ٣٣٩ – ٣٤٠، عوارف المعارف ٢٤٨.
(٧) انظر: الفتوحات المكية ١/ ٢٧٩ الباب الرابع والخمسون في معرفة الإشارات، وانظر: ١/ ١٦٠، ٢٧٩، اليواقيت والجواهر ١/ ٤٢ – ٤٤.

الرموز والإشارات، ولسان الباطن في عباراتهم، وكانت لهم مصطلحاتهم التي تفصح عن المشروع وتحجم عن الممنوع.

قال «الجنيد» «للشبلي» – إن صح عنه – : «نحن حبرنا هذا العلم تحبيراً، ثم خبأناه في السراديب، فجئت أنت فأظهرته على رءوس الملأ! فقال: أنا أقول، وأنا أسمع، فهل في الدارين غيري؟»(١).

وبهذا يظهر أن سر الربوبية عند الصوفية: هو معرفة وحدة الوجود(٢).

ثالثا: علاقة الذوق بمصطلح الفناء:

تقدمت الاشارة إلى أن المراد من الذوق الصوفي تجلي الله في قلب السالك الواصل، وهذا التجلي مرتبط بالمكاشفة والفناء.

يمكن تناول العلاقة بين الذوق والفناء في أوجه منها:

١ – الفناء: مصدر فَنِيَ يَفْنَى فناءً: إذا اضْمَحَلَّ وَتَلاشَىَ وعُدِم.(٣) .

وفي الاصطلاح: قال «الكلاباذي:« تبديل الصفات البشرية، بالصفات الإلهية دون الذات، فكلما ارتفعت صفة قامت صفة إلهية مقامها، وقيل: الفناء ألا ترى شيئاً إلا الله، ولا تعلم إلا الله(٤).

والمتتبع لمصطلح الفناء يظهر له أن الفناء قد مرّ من خلال مسيرته التاريخية عبر القرون بتغيرات جذرية، وقد تنبه كثير من مشايخ الصوفية المتقدمين إلى ما يحمله القول

(١) التعرف ١٦٢–١٦٣، اللمع ٣٠٥ – ٣٠٦ ، ٣١١، الفتوحات المكية ٢/ ٥٩١ ،كشف المحجوب ٢١٩ – ٢٢٥،٢٩٧ – ٣٠٠.

(٢) وحدة الوجود: مذهب فلسفي يوحد بين الله والعالم، ولا يقر إلا بوجود واحد هو الله، وكل ما عداه أعراض وتعينات له، وهو الاتحاد العام، انظر : مجموع الفتاوى ٢/ ٣٦٤، وما بعدها، تنبيه الغبي إلى كفر ابن عربي : للبقاعي ٣٨ وما بعدها، نظرية الاتصال عند الصوفية: سارة آل سعود ٤٨. ورغم أن عقيدة وحدة الوجود فلسفة قديمة معروفة قبل الإسلام إلا أن ابن عربي يعتبر الواضع الأول لها في الإسلام بتغليف تلك النظرية الوثنية بقشرة إسلامية وإن لم يكن أول القائلين بها، وهو أول من تجرأ على الجهر بها والإلحاح عليها، انظر: فصوص الحكم ٤٨ – ٤٩، فص حكمة إلهية في كلمة آدمية ٥٠، فص حكمة سبوحيه كلمة نوحية ٦٨، ديوان ترجمان الأشواق: لابن عربي ٢٤ – ٢٦.

(٣) انظر: معجم مقاييس اللغة ٤/ ٤٥٣، القاموس المحيط ١٧٠٤،١٠٧.

(٤) انظر: التعرف ١٤٢ – ١٤٩، وانظر: اللمع ٤١٧، ٤٢٠، كشف المحجوب: للهجويري ٢٩ – ٢٩٣، الرسالة القشيرية للقشيري ٦٧ معجم الحفني ١٩٦.

بالفناء من بذور الحلول[1] والاتحاد[2] فنبهوا عليها، وحذروا منها [3].

٢ – تظهر علاقة الذوق بالفناء أنه لا ذوق إلا بالتجلي، والتجلي مرتبط بالفناء بنوعيه تجلي وفناء شهودي، وتجلي وفناء وجودي، وفيما يأتي ذكر الفرق بين الفناء الشهودي والفناء الوجودي بقلم محب للصوفية وهو د. محمد جلال شرف – إذ صاحب البيت أدري بالذي فيه – حيث قال [4]: –

أ) – هناك فرق بين نظرية في الفناء تؤدي إلى وحدة الشهود التي هي غرض كل صوفي عارف بالله لا يشهد في الوجود إلا الله، وبين نظرية في الاتحاد والحلول تؤدي إلى القول حتماً بوحدة الوجود، وهي نظرية فلسفية عقلية تلغي الثنائية بين الحق والخلق، وتجعل الوجود واحداً.

ب) – تقوم فكرة وحدة الشهود على أساس وجود نوع من الاتصال الذوقي الروحي المباشر بين العارف وربه، فيشاهد الكل قائماً بالحق، ولا يشهد في هذا الكون سوى الله، فيفقد التمييز بين الخالق والمخلوقات [5].

أمّا وحدة الوجود: فقد قامت على أساس فكرتين خارجيتين على العقيدة الإسلامية هما

---

(١) معنى الحلول في زعم طائفة الحلولية: إن الله يصطفي أجساماً يحل فيها بمعاني الربوبية؛ فيزيل عنها معاني البشرية، وأن الله يحل بالعارفين من أوليائه وأصفيائه. انظر: معجم الحفني ٨٢، التعريفات: ٢٥، شطحات الصوفية: للبدوي ٧ – ٨.

وقد قسم ابن تيمية الحلولية إلى قسمين، الأول: من يقول بالحلول الخاص، وهو قول النسطورية من النصاري، ممن يقول: إن اللاهوت حل في الناسوت، وتدرع به، كحلول الماء في الإناء، وهذا قد قاله غالية النساك كالحلاج وغيره، انظر: مجموع الفتاوى: ٢/ ١٧١ – ١٧٢. وانظر: ٣٤٥، منهاج السنة ٥/ ٣٨٣. الثاني: الحلول العام وهو قول غالب متعبدة الجهمية، الذين يقولون: إن الله بذاته في كل مكان. مجموع الفتاوى ٢/ ١٧٢.

(٢) الاتحاد: هو أن تصيير الذاتين ذاتا واحدة، وهو حال الصوفي الواصل، انظر: المعجم الصوفي ٩ – ١٠، معجم اصطلاحات الصوفية: ٤٩، التعريفات ٢٢، وقسمهم ابن تيمية إلى قسمين: الأول: من يقول بالاتحاد الخاص، وهو قول يعقوبية النصارى، وهم أخبث قولاً، يقولون: إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا، كاختلاط اللبن بالماء. الثاني: وهو من يقول: إن عين وجود الله، هو عين وجود الكائنات، وهو قول ابن عربي وغيره. مجموع الفتاوى ٢/ ١٧٢.

(٣) انظر اللمع: ٥٥٢، ٥٤١ – ٥٥٢، كشف المحجوب ٣٢٤، وانظر: ٢٩٠ – ٢٩٦.

(٤) انظر: دراسات في التصوف الإسلامي ٢٩٢ – ٣٤٦، وانظر: أضواء على التصوف: طلعت غنام، الرسالة القشيرية ٧٥، دراسة في التجربة الصوفية: نهاد خياطة ٥ وما بعدها.

(٥) انظر: دراسات في التصوف ٣٣٤، نظرية الاتصال عند الصوفية: ٥٨.

الاتحاد والحلول، أي: اتحاد الإنسان بالله تعالي، أو بتعبير أصدق محاولة تأنيس الله عز وجل أي إعطاء الله تعالى صفات البشر والمخلوقات وكل ما يفيد التشبيه والتجسيم كما حدث في عقيدة اليهود، والحلول الذي يعبر عن تأليه الإنسان وحلول اللاهوت في الناسوت كما حدث في النصرانية، فالاتحاد هو: تشبيه الخالق بالمخلوق، والحلول: هو تشبيه المخلوق بالخالق.

ج) – أن وحدة الشهود اتصال ذوقي خاص يفيد الثنائية بين الخالق والمخلوق وهي حال بين الحلول ووحدة الوجود(١).

ومع ما في الكلام السابق من حقائق ولكن بالنظر إلى تاريخ مصطلح الفناء – وما لازمه من تدهورات عقدية زادت مع الزمن – يجد الباحث أن الفناء الشهودي قد انتهى إلى وحدة وجود في مدرسة «ابن عربي»، وتلاميذه الاتحادية.

فمصطلح التجلي عند الصوفية ليس إلا تسمية أخرى للحلول، فالاختلاف لفظي فقط والمعنى واحد(٢) وأن وحدة الشهود هي – أوقد انتهت إلى – الحلول والاتحاد(٣).

رابعا: العلاقة بين الذوق والمصطلح الصوفي السكر:

تظهر العلاقة بينهما على النحو الآتي:

١ – السكر: من أظهر الأحوال الصوفية وأخصها، فهو يمثل مرحلة ما بعد الذوق وحصول تلك النشوة العَارمة التي تفيض بها نفس الصوفي وقد امتلأت بحب الله حتى غدت قريبة منه كل القُرب.

ومن مجموع ما جاء في تعريف مصطلح السكر(٤) نخلص بالآتي:

أ – السكر غيبة بوادر قوي، وهو أن يغيب عن تميز الأشياء ولا يغيب عن الأشياء، فإن غلبات وجود الحق تسقطه عن التميز بين ما يؤلمه ويلذه، ويحصل السكر إذا كوشف العبد بنعت الجمال.

(١) انظر: أضواء على التصوف: ٢١٧ – ٢٢٨. ٢٠٠ – ٢٠٨.
(٢) عوارف المعارف ٢٤٨ – ٢٤٩، اصطلاحات الصوفية ١٧٣ – ١٧٤.
(٣) انظر: دراسة في التجربة الصوفية ٩ – ١٤.
(٤) انظر: اللمع ٤١٦ – ٤١٧، ٤٣٤، التعرف ١٣٥ – ١٣٨، الرسالة القشيرية ٧١ – ٧٢، ٦٩ – ٧٠، كشف المحجوب ٢٩٨، ٢٩٧ – ٣٠٠، عوارف المعارف ٢٥٠ – ٢٥١، الفتوحات المكية ٢/ ١٣٣، معجم الكاشاني ٣٥٥ – ٣٥٨، التعريفات ١٥٩، ١٧٣، ٢٠٩ – ٢١٠.

ب – الصحو والسكر معناهما قريب من معنى الغيبة والحضور غير أن الصحو والسكر أقوى وأتم وأقهر من الغيبة والحضور.

ج – الغيبة قد تكون للعباد بما يغلب على قلوبهم من موجب الرغبة والرهبة، ومقتضيات الخوف والرجاء، والسكر لا يكون إلا لأصحاب المواجيد.

٢ – استعمل المشايخ المتقدمون السكر، والشرب، والري، ويعبرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التجلي، ونتائج الكشوفات، ثم زاد « ابن عربي » على ذلك وقسم السكر على مراتب (١): سكر طبيعي: وهو ما تجده النفوس من الطرب والالتذاذ والسرور، وهو سكر المؤمن، السكر العقلي: وهو سكر العارفين، السكر الإلهي: وهو سكر الكمل.

٣ – الخمر وعلاقتها بالسكر في الذوق الصوفي:

الدارس لمصطلح السكر عند الصوفية يظهر له هذا الارتباط العميق بين السكر ومصطلح الخمر؛ ومع أن الخمر عند المسلمين ومنهم الصوفية – غير الغلاة الذين تكلم فيهم العلماء المحققين – من الخبائث فكيف يمدحها المتصوفة وهم أهل الإيمان ونموذج الصفاء الروحي؟ رد الصوفية على هذا بقولهم هذا سؤال قد يربك الجاهل بحقيقة هذه الخمرة وحقيقة الرؤية الصوفية إليها. ولدرء هذا التعارض الظاهري تكفي الإشارة إلى أن الخمرة في عرف الصوفية، ليست هي الخمر الحسية المعروفة وإنما هي الحب الإلهي في أبهى صوره وأزكى تجلياته (٢).

وقد توغل الصوفية إلى حقيقة السكر والخمر، حيث أعملوا فيهما الخيال ومزجوهما بالذوق الصوفي، وبثوا فيهما مواجيدهم وأذواقهم، حتى صار وصفها ترجمة لحياتهم الروحية، ورمزًا للمحبة الإلهية، ولمقدار ما وصلوا إليه من أحوال، فاستندوا إلى مسميات الخمر الحقيقية ومتعلقاتها من السكر والشراب والري والصحو، ويعبرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التجلي، ونتائج الكشوفات (٣).

---

(١) انظر: الفتوحات المكية الباب السادس والأربعون ومائتان في السكر ٢/ ٥٤٤ – ٥٤٥.

(٢) انظر: أحمد بن عجيبة شاعر التصوف المغربي: نورالدين الفقيه ٣٤.

(٣) انظر: شرح ديوان ابن الفارض: بدر الدين البوريني، وعبد الغني النابلسي، القصيدة (١٣) ٢/ ٢٤٥ – ٢٧٥، وانظر: ١/ ٨٢، ١٨٢، ١٩١، ٢١٠، ٢٧٩، ٣٤٢، ٢/ ٣٤٦، ديوان عفيف الدين التلمساني: دراسة وتحقيق: يوسف زيدان ١/ ٦٦ – ٦٧، ٨٧ – ٨٢، ٦٨ – ٨٧، ٩٢ – ٩٣، ٩٦، الرمز الشعري =

وهذا يفسر تلك المكانة الكبيرة لها في نثر وشعر الصوفية؛ ولذا لما جعل «ابن عربي» المشروب علوم تتجلى للعارفين في صور أربعة مشروبات محسوسة هي اللبن والماء، والعسل، والخمر خص الخمر بالمديح والتفضيل [١].

وقد لجأ الصوفية إلى استخدام رمز الخمر في مرحلة الذوق لإيجاد أوجه التقاء بين جوهر الخمر، وما يحدث للصوفي من نشوة وتغيب أثناء الفناء في الذات الإلهية، كما استعمل الصوفية لفظ الخمر، وما في معناه بمفهومات متعددة كان من بينها الإشارة إلى الذات الإلهية، والإشارة إلى الأسرار [٢]، والتجليات الإلهية، والإشارة إلى الحب الإلهي، والإشارة إلى حقائق الغيب، وغيرها الكثير من المعاني تسترا على سر الربوبية [٣].

ومن هنا كان الرمز فضلاً عن الغموض من أساسيات المصطلح الصوفي، فالأفكار والأسرار أدق وأخطر من أن توجه إلى العامة صريحة واضحة؛ لذلك كان الرمز أحد حلول إشكالية كبيرة واجهها الصوفية وهي إيجاد الشكل التعبيري المناسب، والسلامة من اتهام علماء الرسوم [٤].

= عند الصوفية: عاطف نصر، ص :٣٤٠ – ٣٤٨.

(١) انظر: الفتوحات المكية الباب التاسع والأربعون ومائتان ٢/ ٥٥١.

(٢) انظر: الرمز الشعري: عاطف نصر ٣٤٦ – ٣٤٨، الرمز الشعري واغتراب اللغة في المنظور الصوفي: شعبان بدير، مقال من النت.

(٣) انظر: المفهوم الرمزي للخمر عند الصوفية: حسن قريب الله ٧٨، ١٨٥، أحمد بن عجيبة: نورالدين ٣٧.

(٤) بعد أن تغير الزهد الصوفي وبدأت تخرج من أفواه أتباعه عبارات الفناء والحلول والتي أثارت حفيظة واستنكار الفقهاء الذين سموهم علماء الرسوم وأهل الظاهر كان من أبرز ما اتسمت به مصطلحات الصوفية الرمزية والغموض لمقاصد وغايات منها: ستر المذهب، وليتصرفوا في طريقتهم، ويظهروها لمن يريدون، ويخفوها عمن يريدون أو الخوف من القتل؛ لأن الغاية من التصوف هو أمر عقدي يخشى المتصوفة التصريح به إلا لمن كان منهم ألا وهو عقيدة الاتحاد والحلول و وحدة الوجود (السر الإلهي) فعند الصوفية سر غريب يسمونه السر الإلهي، وأهل هذا السر هم الصوفية ولا يعرفه إلا من وصل، ويتواصون في كل زمان ومكان بكتمانه عن غير أهله، انظر: الرسالةالقشيرية١٣٠، كشف المحجوب ٤٤٥ – ٤٤٥، معجم الكاشاني٤٥ – ٤٦، عوارف المعارف ٢٤٨، الإحياء١/ ١٠٠ – ١٠٣، رسائل ابن عربي ٣٠٢ – ٣١٠، الفتوحات المكية ١/ ٢٨١، اليواقيت والجواهر ١/ ٣٠ – ٣٢، ٣٦ – ٤٦، معجم الحفني: ١٢٩ – ١٣٠، قاموس المصطلحات الصوفي ٦٦. وهذا السر يُقتل من يبوح به على أنه مرتد عن الإسلام كما حصل «للحلاج»، و «للسهروردي» المقتول (٥٦٣) القائل:

بالسر إن باحوا، تباح دماؤهم ... وكذا دماء العاشقين تباح.

انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: لابن أبي أصيبعة ٢/ ١٦٩، شرح ديوان بن الفارض ١/ ٣٣٩،=

خامسا: علاقة الذوق بالمصطلح الصوفي الشطح:

كانت مسألة الشطح والشطحات والموقف من قائليها من المسائل التي كان لها وزن واعتبار في الفكر الصوفي منذ وقت مبكر [(١)]، وتظهر علاقة الذوق بالمصلح الصوفي الشطح فيما يأتي:

– قال «الطوسي»:« الشطح في لغة العرب الحركة، وهو: عبارة مستغربة في وصف وَجْد فاض بقوَّته، وهاج بشدة غليانه فهو لفظة مأخوذة من الحركة؛ لأنها حركة أسرار الواجد إذا قوي وجدهم، فعبّروا عن وجدهم ذلك بعبارة يستغرب سامعها [(٢)].

– إن حقيقة الشطح هو تعبير عن حال وجد فائق؛ ذلك أن ذوق المعرفة الإلهية التي هي خمر الصوفيين تؤدي إلى سكرهم وغيبتهم، وتحت السطوة الهائلة لهذه الخمرة لا يملك الصوفي إلا أن ينطق بما يعرف دون أن يحس فهو يهذي ويرمز ويشطح بأفكاره وكلماته بعيداً [(٣)].

– حرم كبار المتصوفة إذاعة سر هذا اللقاء الفريد بين العبد والمعبود، واعتبروه إفشاء للسر الذي يجب ألا يطلع عليه أحد وأنكروا كل الإنكار على من أفشى به، و قرنوا إباحة الدم بالبوح بالسر، ثم قالوا إن كان الناطق بالشطح ممن خرج عن طور الأغيار وتحقق في طور الفناء بالله ذاتاً وصفاتٍ وأفعالا فكلامه ناجم عن حقيقة يعيشها ولسانه ينطق بمعنىً يذوقه، فلا يوصف كلامه بالكفر فهو يستند إلى أرضية محسوسة يتذوق حلاوة بردها في داخله، ولكن يوصف بالشطح لقصور إدراك من حوله عن حقيقة كلامه، فجوهر كلامه عين الحقيقة، وظاهره مستقبح مردود، وحكم صاحبه العذر له إن كان في غيبة وسكر، والخلاف

= ٣٤١؛ ولأجل هذا قال «الجنيد» – إن صح عنه – لا يبلغ أحد درج الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق بأنه زنديق، الفتوحات ٢/ ٥٩١، وانظر: شطحات الصوفية ٦ – ١٤، الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ: محمود القاسم ١٧ – ١٠٣.

(١) وفي مقدمتهم « الطوسي» في كتابه (اللمع) حيث افتتح هذه المسألة بقوله: «كتاب تفسير الشطحيات والكلمات التي ظاهرها مستشنع، وباطنها صحيح مستقيم، باب: في معنى الشطح والرد على من أنكر ذلك برأيه»، اللمع ٤٥٣، وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ٤٥٣.

(٣) انظر: شطحات الصوفية: عبد الرحمن بدوي ٩ – ١٠، القضايا النقدية في النثر الصوفي: وضحى يونس، ١٢٦ – ١٣٠، ١١٨ – ١٢١.

قائم بين الصوفية إن كان في حالة صحوه.

– منذ منتصف القرن الثاني بدأت بذور القول بالفناء والحلول والاتحاد في التاريخ الصوفي، وقد بدأ على يد صوفية كبار متقدمين، وحاول مصنفو الصوفية المتقدمين الاعتذار عمن صدرت عنه بأنها شطحات قيلت في حالة السكر والغيبة، وهو مغلوب على أمره [١]، بل وحذروا من التعرض أو الإنكار لمن سجل التاريخ لهم هذه الشطحات من الصوفية [٢].

المبحث الثاني

الذوق عند السلف

المطلب الأول

معنى السلف لغة واصطلاحا

١ – معنى السلف في اللغة:

قال» ابن فارس:« سلف: السين واللام والفاء: أصل يدل على تقدم وسبق، ومن ذلك السلف: الذين مضوا [٣].

٢ – معنى السلف اصطلاحاً:

ظهر في التعريف اللغوي أن معنى السلف يرجع إلى معنى السبق والتقدم الزمني، ومن ثم كان ثمة اختلاف – في التعريف الاصطلاحي للسلف – في تحديد الزمن الذي ينسب له السلف، لذا تناولت تعريفات العلماء للسلف ثلاث فترات زمنية متتابعة [٤] هي:

١ – زمن الصحابة.

---

(١) ومن هؤلاء «الطوسي» الذي عقد في كتابه (اللمع) أبواب لهذه الشطحات منها: – «باب في كلمات شطحات تحكي عن «أبي يزيد» ومنها: أنه قال: «سبحاني، سبحاني، ما أعظم شأني» ونقل عنه أنه كان يوماً في الصومعة فجاءه رجل وقال: هل «أبو يزيد «في البيت؟ فقال: هل في البيت إلا الله، ونقلوا عنه أنه قال: «ما في الجبة غير الله ». انظر: اللمع ٤٧٢، ٣٣٣ – ٤٣٦، كشف المحجوب ٣٠٤، ٣٠٩، مجموع الفتاوى ٢/ ٤٦١.

(٢) انظر: اللمع ٤٥٤، التعرف ١٠٢ – ١٠٣، الرسالة القشيرية ٥٣، وكشف المحجوب ٤٤٣ – ٤٤٤.

(٣) انظر : معجم مقاييس اللغة: ١/ ٩٥ – ٩٦، لسان العرب المحيط ٦/ ٣٣٠ – ٣٣١، القاموس المحيط ١٠٦٠ – ١٠٦١.

(٤) انظر: إلجام العوام عن علم الكلام: محمد الغزالي ٥٣، مجموع الفتاوى ١٣/ ٢٨ – ٢٩، لوامع الأنوار البهية محمد السفاريني ١/ ٢٠ – ٦٤

٢ – زمن الصحابة والتابعين.

٣ – زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم، من الأئمة الأعلام المشهود لهم بالإمامة والفضل واتباع الكتاب والسنة، كالأئمة الأربعة والشيخين، وأصحاب السنن، وغيرهم ممن تلقت الأمة كلامهم بالرضا والقبول خلفاً عن سلف دون من خالفهم ببدعة.

وأولى هذه الأقوال بالصواب – والله تعالى أعلم – القول الثالث؛ وذلك:

لأن موافقة الكتاب الكريم، والسنة المطهرة، وعدم معارضتهما برأي، ولا ذوق، ولا قياس؛ هذا الوصف كما هو متحقق في الصحب الكرام، هو أيضاً متحقق في التابعين، وتابعيهم، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين، فالتقييد الزمني مراعاة للمعنى اللغوي لا يعطي تعريفاً اصطلاحياً شاملاً لكلمة "السلف" نعم.. هناك علاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي هي علاقة عموم وخصوص مطلق، فيلتقي المعنيان في التقدم والسبق الزمني، لكن يزيد المعنى الاصطلاحي على هذا بوصف مهم، وضابط مطلوب هو موافقة الكتاب الكريم، والسنة المطهرة.

وللباحث "عثمان حسن" تفصيل جيد لمعنى السلف اصطلاحاً حيث وضّح أن: السلفية تطلق ويراد بها أحد معنيين:

الأول: حقبة تاريخية معينة تختص بأهل القرون الثلاثة المتقدمة .

الثاني: الطريقة التي كان عليها الصحابة والتابعون ومن تبعهم بإحسان من التمسك بالكتاب والسنة، والعمل على مقتضى فهم الصحابة .

فالسلفية بالإطلاق الأول: تكون مرحلة تاريخية قد انتهت بموت رجالها .

وبالإطلاق الثاني: تكون منهاجاً باقياً إلى يوم القيامة، يصح الانتساب إليه [(١)].

المطلب الثاني

معنى الذوق عند السلف

لقد كان مفهوم السلف لمعنى الذوق قائما على المعنى اللغوي والشرعي، واعتبروا – رحمهم الله – الأصل فيما يُذكر من الوَجْد والذَوْق الإيماني الشرعي دون الضلالي البدعي هذان الحديثان الصحيحان:

---

(١) انظر: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد: عثمان حسن ١/ ٣٤ – ٣٥.

عن «العباس» ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً»[1].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[2].

ويمكن الوقوف على معنى الذوق عند السلف على النحو الآتي:

١ – الذوق عند السلف ينقسم إلى قسمين [3]:

الأول: ذوق شرعي: وهو ما دل عليه الدليل من الكتاب والسنة؛ فإن الذوق لا يستقل بالدلالة على شيء.

الثاني: ذوق غير شرعي: وهو ما دل الدليل الشرعي من الكتاب والسنة على بطلانه، أو لم يدل الدليل على بطلانه أو صحته؛ لأنه والحالة هذه لا يعرف هل هو وسواس شيطاني، أو ذوق إيماني، ولأن لكل إنسان ذوقا؛ فالوجودي يدعي أن ذوقه يدل على اعتقاده، وهكذا الأمر بالنسبة لليهودي، والنصراني، ثم بما عرف مدعي الذوق أن ذوقه ذلك صحيح حتى يعتمد عليه ويترك دلالة الكتاب والسنة [4].

هذا، ونصوص القرآن والسنة تدل على وجوب اتباع الكتاب والسنة لا غير مما يدل على رد ما سواهما كقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ (التغابن:١٢)، وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ (النساء:٦٥).

---

(١) صحيح مسلم كتاب: الإيمان، باب الدليل على أن من رضيَ بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ رسولاً فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي الكبائر رقم (٣٤).

(٢) صحيح البخاري كتاب: الإيمان، باب: حلاوة الإيمان رقم (١٦)، وهو في الفتح: ١/ ٦٠، صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان رقم (٤٣). وهو في شرح النووي ٢/ ٢.

(٣) انظر: مدارج السالكين ١/ ٣،٥٣١ / ٤٥٩ – ٤٦٠، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: لابن تيمية ٣ / ١٦٨ – ١٨٨، مجموع الفتاوى ٢/ ٤٧٨، ١٠/ ٤٨ – ٣٣٥.

(٤) انظر: الفتاوى ١٠/ ٤٨.، مجلة البحوث الإسلامية، العدد الحادي والأربعون ١٤١٤ – ١٤١٥هـ، مصادر التلقي عند متأخري الصوفية، ص: ١٧٨.

وقوله ﷺ : « إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ تعالى » [(١)]، والأدلة في هذا كثيرة.

ولا يختلف الأمر – عند السلف – في الوجد عن الذوق فهو منقسم إلى قسمين [(٢)]:

١ – وجد إيماني وهو ما دل عليه الشرع، وهو وجد صحيح.

٢ – وجد شيطاني: وهو ما لم يدل عليه دليل من الشرع، وهو وجد باطل.

كما أن الوجد قد يبلغ ببعض الناس إلى درجة يغيب فيها عن شعوره، ومن فقد التمييز والعقل لم يكن له حكم صحيح على الأشياء فكيف يمكن الاعتماد عليه، وبذا يعلم أنه لا يمكن الاعتماد على كل ما يوجد في القلب من أحوال فالعبادات مبناها على الاتباع لا الابتداع.

٢ – معنى ذوق طعم الإيمان الوارد في الحديث:

أ – قال «القرطبي:« قوله: «ذاق طعم الإيمان» أي: وجد حلاوته، وهي عبارة عمَّا يجده المؤمن المحقق في إيمانه، المطمئن قلبه به من انشراح صدره، وتنويره بمعرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ﷺ ومعرفة مِنَّة الله تعالى عليه في أن أنعم عليه بالإسلام، وَنَظَمَهُ في سِلْكِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ خير الأنام» [(٣)].

ب – يتحقق هذا الذوق لطعم الإيمان بخصال ثلاث: قال النبي ﷺ : «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً ».

جـ – تضمن الحديث مدار مقامات الدين، وتضمن الرضا بالربوبية والألوهية لله سبحانه، والرضا بالرسول ﷺ والانقياد له، والرضا بدينه والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الطرق الأربعة فهو الصديق حقًّا [(٤)].

وتتضح المعاني الواردة في الحديث بالآتي:

– معنى رضيت بالشيء: « قنعت به، واكتفيت به [(٥)]، والرضا نوعان: عام وخاص:

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ١/ ٢٨٤. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم (٤٠).

(٢) انظر: مجلة البحوث الإسلامية ١٤١٤ – ١٤١٥هـ، ص: ١٨٢ – ١٨٣.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: أحمد القرطبي ١/ ٢١٠ – ٢١١.

(٤) انظر: مدارج السالكين ٢/ ١٧٩.

(٥) شرح صحيح مسلم: للنووي ٢/ ٢.

فالرضا العام ألا يتخذ غير الله تعالى ربًّا، ولا غير دين الإسلام دينًا، ولا غير محمد ﷺ رسولاً، وهذا الرضا لا يخلو عنه مسلم؛ إذ لا يصح التدين بدين الإسلام إلا بذلك الرضا [١].

والرضا بالله تعالى يكون:

بالرضا بإلهيته ويتضمن عبادته والإخلاص له، والرضا بربوبيته ويتضمن الرضا بتدبيره لعبده به، والاعتماد عليه وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به، فالأول يتضمن رضاه بما يؤمر به، والثاني يتضمن رضاه بما يقدر عليه [٢].

أما الرضا بنبيه ﷺ رسولاً:

فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يرضى بحكم غيره البتة.

وأما الرضا بدينه:

فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضي كل الرضا، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسلَّم له تسليمًا ولو كان مخالفًا لمراد نفسه، أو قول شيخه وطائفته [٣].

وأما الرضا الخاصّ فهو الذي تكلم فيه أرباب القلوب، وأصحاب السلوك، ويحققه العبد إذا لم يكن في قلبه غير الله تعالى ولم يكن له همٌّ إلا مرضاته، والرضا أعلى منازل التوكل، فمن رَسَخ قدمُه في التوكل والتسليم لله تعالى حصل له الرضا ولابد [٤].

– أن مَن رضي بالله ربًّا وجد حلاوةً في طاعته، ولذةً في البعد عن معصيته، ومن رضي بالإسلام دينًا وجد حلاوةً في اتباع الشريعة، والعمل بها، والتحاكم إليها، ومن رضي بالرسول ﷺ رسولاً وجد حلاوة في اتباع سنته، والتزام هديه، ومن كان كذلك فلن يجد مشقة في أداء الفرائض، والمحافظة على النوافل.

– العباد يتفاوتون في هذه الخصال الثلاث وهي: الرضا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا فهذا الرضا هو بحسب معرفة العبد بعدل الله وحكمته ورحمته

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: للقرطبي ١/ ٢١٠ – ٢١١.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ١٠/ ٤٦ – ٤٨، مدارج السالكين ٢/ ١٨٠.

(٣) المرجع السابق.

(٤) انظر: المفهم للقرطبي ١/ ٢١١، مدارج السالكين ٢/ ١٨١.٣، الاستقامة: أحمد بن تيمية ٢/ ٩٠ – ٩٢، ١١٦ – ١٢٨، مجموع الفتاوى ١٠/ ٤٦ – ٤٨.

وحسن اختياره، فكلما كان بذلك أعرف كان به أرضى [١].

– أثبت الحديث أن للإيمان طعماً، أما مذاقه فحلو، وهذه الحلاوة أداة تذوقها القلب واللسان والجوارح، ويجد المرء أثر ذلك في نفسه، والقلب لابد له من أثر في جميع ذلك؛ فهو أصل الأعمال، والتذوق بغير اللسان وفضله على ما يجده من تذوق بلسانه مشهور معلوم[٢].

د – إذا لم يجد العبد للعمل حلاوة في قلبه وانشراحًا فاليتَّهمْه فإن الربَّ تعالى شكور، فإن الله تعالى لا بد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه وقوة انشراح، وقرة عين فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول[٣].

هـ – هذه الأمور الثلاثة التي تضمنها الحديث هي التي يسأل عنها العبد في القبر.

٣ – معنى وجود حلاوة [٤] الإيمان الوارد في الحديث:

– ليس المراد بوجد حلاوة الإيمان الوجد الذي هو لهيب القلب، فإن ذلك مصدر وجد بالشيء وجدا؛ وإنما هو من الوجود الذي هو الثبوت والاستقرار، فمصدر هذا الفعل الوجود والوجدان[٥].

– قال النووي:« معنى حلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات، وتحمل المشاق، وإيثار ذلك على أغراض الدنيا، ومحبة العبد لله بفعل طاعته، وترك مخالفته، وكذلك الرسول ﷺ »[٦].

– الإيمان له طعم حلو دائمًا لا يتغيّر، وإنما الذي يتغيرٌ هو حال من يتذوقه، وهذه الحلاوة تتفاوت من شخص إلى شخص حسب قوة الإيمان وضعفه[٧]، وتحصل بحصول أسبابها واستيفاء شروطها كما تزول بزوال أسبابها، وحلاوة الطاعة وملاكها في جمع القلب

(١) انظر: الفوائد: محمد بن القيم ٢٢٥.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٧ / ٥٤١، مدارج السالكين ٣ / ٩٢.
(٣) انظر: مدارج السالكين ٢ / ٧٠.
(٤) قال ابن فارس:« الحاء واللام وما بعدها معتل ثلاثة أصول: فالأول الحُلْو، وهو خلاف المُر يقال: استحليت الشيء، وقد حلا في فمي يحلو. والثاني: الحُلِيّ حُلِيّ المرأة. والثالث: هو تنحية الشيء»، انظر: معجم مقاييس اللغة ٢/ ٩٤ – ٩٥.
(٥) انظر: مدارج السالكين ٣/ ٩٤، ٧٠.
(٦) شرح صحيح مسلم للنووي ٢/ ١٣، وانظر: مجموع الفتاوى ١٠/ ٣٣٣ – ٣٣٦. فتح الباري ١/ ٦٠.
(٧) شرح صحيح مسلم ٢/ ١٣ – ١٤.

وعكوفه بكليته على الله عز وجل، لا يلتفت عنه يمنة ولا يسرة [1].

– قال ﷺ: « مِمَّا سِوَاهُمَا» ولم يقل: «مِمَّن سِوَاهُمَا»: ليعم من يعقل ومن لا يعقل [2].

– الجامع بين الثلاثة أنها ذوق وإحساس، وليس فيها ثمة أعمال محسوسة، وإنما ذوق قلبي بالمحبة للآخرين وبكراهية العودة إلى الكفر.

– هذه الحلاوة هي من أعظم النعيم الذي يكرم الله تعالى به أولياءه في الدنيا قبل الآخرة، وكما يجد الجسد لذة الطعام والشراب وغيرها، فكذلك القلب يجد للإيمان حلاوة، ولذة القلب أشرف من لذة الجسد.

المطلب الرابع

الموقف السلفي من الذوق الصوفي

كان للسلف – رحمهم الله – منهج متميز في تلقي العقيدة وتقريرها، وهو يقوم على الاتباع والتسليم لنصوص الكتاب الكريم، وصحيح السنة المطهرة، وكل دعوى في اتباع السلف لا تكون قائمة على هذا المنهج فهي مرفوضة وقد خالفت الصوفية في هذا مع ادعائهم أن طريقتهم مقيدة باتباع الكتاب والسنة [3] وقد دلت النصوص على إكمال الدين، وإتمام النعمة، فالبدعة اتهام للدين بالنقص، ولا يعذر المبتدع بحسن النية، كما لا ينفعه أي تبرير لبدعته إذ كل تعبد على خلاف هدي رسول الله ﷺ هو بدعة مردودة لا تزيد صاحبها إلا بعداً.

وقد تقدم بيان معنى مصطلح الذوق عند السلف القائم على موافقة المعنى اللغوي والشرعي، وبعرض معنى الذوق عند الصوفية على هذا المعنى السلفي نخرج بالآتي:

– أولا: دل النص الشرعي على أن:

– **الذوق الشرعي هو:** ما يحصل في القلب من لذة إيمانية، وحلاوة يقينية، ومعنى «ذاق حلاوة الإيمان»:« هو عبارة عمَّا يجده المؤمن مِن انشراح صدره، وتنويره بمعرفة الله –

---

(١) انظر: مدارج السالكين ٣/ ١٠٢.

(٢) انظر: فتح الباري ١/ ٦١.

(٣) وكثيرا ما يستدل المدافعون عن الصوفية على صحة طريقتهم بمثل هذه الأقوال ومنها قول «سهل التستري:« «كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل» اللمع ١٤٦، وقول أبو سليمان الداراني: « إنه لتلمّ بقلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة». انظر: اللمع ١٤٦، طبقات الصوفية ٧٨، وقول الجنيد:« علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة». انظر: اللمع ١٤٤، طبقات الصوفية ١٥٩.

تعالى – ومعرفة رسوله ﷺ ومعرفة مِنَّة الله – عزوجل – عليه في أن أنعم عليه بالإسلام.

- الذوق الشرعي يكون بعد تحقيق صفات وخصال كما قال ﷺ «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً»، فالذوق الشرعي ثمرة القيام بأعمال جليلة.
- الذوق لا بد أن يعرض على كتاب الله تعالي وسنة رسوله ﷺ، فإن وافقهما أقر، وإن خالفهما ردّ؛ لأن الله ورسوله لم يجعلا الأذواق هي الحكم، بل الحكم هو ما أنزله جل شأنه على رسوله ﷺ كما قال تعالى:﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ (المائدة:٤٩).

بينما الذوق الصوفي فله معنيان – كما تقدم – كلاهما مردود:

الأول: معنى عام ويطلق على الحالة الوجدانية التي يكون عليها الصوفي عند منازلته لحال من الأحوال، أو مقام من المقامات عن تجربة وابتلاء لا عن تسامع وعلم مجرد، فلا يتم الذوق إلا بتجربة روحية وحال يصل الإنسان إليهما عن طريق الخلوة والرياضة والمجاهدة بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق.

فمما يجاب عن هذا:

أ – إن تزكية النفوس والسلوك هو بالطريق التي أمر الله تعالىبها، ورسوله ﷺ من الاعتقادات والعبادات والأخلاق، فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوصة في الكتاب والسنة[١].

وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بمقامات وأحوال ومجاهدات وخلوات لم يجئ بها الرسل – عليهم السلام – فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها إلا من طريقهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم[٢]، وعامة من تزندق من السالكين لقلة العلم بالسنن والآثار، والإعراض عن دواعي العلم، وسيره على جادة الذوق والوجد، ذاهبة به الطريق كل مذهب، فهذه فتنته،

(١) انظر: مجموع الفتاوى ١٩/ ٢٧٤.
(٢) مدارج السالكين ٢/ ٣٢٨.

والفتنة به شديدة [1].

ب- نبه الإمام «ابن القيم» إلى أن هناك ثلاث قواعد من أهم قواعد السلوك الإيماني، من لم يبن عليها فبناؤه على شفا جرف هار وهي [2]: -

١. أن الذوق والحال والوجد : ليس حاكما بل محكوم عليه، وهذا منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة حيث جعلوه حاكماً، فتحاكموا إليه فعظم الأمر، وطمست معالم الإيمان والسلوك المستقيم، وانعكس السير، وكان إلى الله فصيروه إلى النفوس، فالناس المحجوبون عن أذواقهم يعبدون الله، وهؤلاء يعبدون نفوسهم، ثم إنه وقع من تحكيم الذوق من الفساد ما لا يعلمه إلا الله، فإن الأذواق مختلفة في أنفسها، متباينة أعظم التباين، وكل من اعتقد شيئاً أو سلك سلوكاً –حقاً كان أو باطلاً– فإنه إذا ارتاض وتجرد لزمه وتمكن من قلبه، وبقي له فيه حال، وذوق ووجد، فبذوق من توزن الحقائق إذن ويعرف الحق من الباطل .

٢. أنه إذا وقع النزاع في حكم ذوق من الأذواق، هل هو حق أو باطل؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين، وهي وحيه، ويعرض عليه ويوزن به، فما زكاه منه وصححه فهو المقبول، وما أبطله ورده فهو الباطل المردود، ومن لم يبن على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله، فليس على شيء من الدين.

٣. إذا أشكل على السالك حكم شيء: هل هو الإباحة أو التحريم؟ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته فإن كان مشتملاً على مفسدة راجحة ظاهرة، فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته بل العلم بتحريمه من شرعه قطعي.

الثاني: معنى خاص – هو المراد عند الاطلاق عند الصوفية – ويراد به أنه مصدر من مصادر المعرفة والتلقي في العقيدة؛ فهو نور مقذوف في القلوب، وهو ناتج عن تجلي الله تعالى على قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل من غير نظر في كتاب، وهو أول التجليات.

من هذا التعريف تظهر المخالفات العقدية للذوق الصوفي فيما يأتي:

١. القدح بأصل الإسلام وهو التوحيد بأنواعه، والتعرض للذات الالهية كما سيأتي بيانه.

(١) انظر: المرجع السابق ١/ ١٧٧.

(٢) انظر: المرجع نفسه ١/ ٥٣١ – ٥٣٣.

٢. ترك الأخذ بالكتاب والسنة وعدم الاعتماد عليهما، وفيه فتح باب التلاعب بالنص الشرعي فالأذواق مختلفة، والمواجيد متغيرة، ولا ضابط لهذا، فالحكم في هذه الحالة يحكمه الهوى، ويسوقه استحسان النفس [١].

٣. أن الذوق الصوفي حال يفاجئ العبد في قلبه، ونور يحصل في قلوب الأولياء بسبب تجلي الله تعالى فيها، وبالتالي فلا مدخل للاكتساب فيه والاجتلاب خلافا للذوق الشرعي.

٤. أن هذا الحال والنور ناتج عن تجلي الله تعالى على قلوب أوليائه، ومسألة التجلي عند الصوفية ومراتبها وأنواعها ظهرت فيها مخالفات عقدية عديدة يوضحها:

ثانيا: تقدم في المطلب السابق بيان ارتباط الذوق عند الصوفية بالتجلي، وأنه ثلاث مراتب، وبعرض هذه المراتب على نصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة يظهر واضحا جليا أثر الابتداع في التلقي والتعبد في مخالفة نصوص الشرع إلى حد الخروج من سياج الشريعة [٢] والعياذ بالله، ومن أوجه هذه المخالفات العقدية:

١. **أوجه المخالفة في المرتبة الأولى للتجلي** – وهي تجلي ذات، تجلي الذات وحدها لذاتها، وهي الحضرة الأحدية التي لا نعت فيها ولا رسم – **فـــهي:**

الأول: إن اعتقاد أن اللهتعالى ذات – جلت ذاته وتقدست – لا نعت فيه ولا رسم، وهي أعلى المراتب هو اعتقاد مخالف للنقل و العقل، **أما مخالفته للنقل فذلك**:

أن الإيمان بالله تعالى إنما يعني الإيمان بالذات الإلهية، والإيمان بصفاته العليا وأسمائه الحسنى، وتظهر العلاقة بين الذات وبين الأسماء والصفات من عدة وجوه يمكن تناولها على النحو الآتي [٣]:

- أن نفي الأسماء والصفات ليس فيه تنزيه الله تعالى عن مشابهة الحوادث كما يزعمه المعطلة، ولا وصفه بالكمال كما تزعم الصوفية، بل لازم هذا التعطيل إنكار الذات وجحدها.

---

(١) انظر: ديوان ترجمان الأشواق ٢٢ – ٢٦، الفتوحات المكية ١/ ١٥٠.

(٢) انظر: مجموع الفتاوي: ٢ / ٣٤٣ – ٣٤٥، ٣٤٨، ١١/ ٢٢٧ – ٢٢٨.

(٣) انظر: الرسالة التدمرية: لابن تيمية، الرسالة الأكملية له، مجموع الفتاوى ٣/ ١٢٩ – ١٥٩، ٤/ ١٨٢، ٥/ ٢٦، ٢٠٦، ٦/ ٣٦ – ٣٨، ١٤٤ – ١٥٣، بدائع الفوائد: لابن القيم ١/ ١٥ – ١٦، ١٤٤ – ١٥٤، القواعد المثلى: لابن عثيمين، تقريب التدمرية، شرح لمعة الاعتقاد له، القواعد الكلية: إبراهيم البريكان.

- أن الموصوف لا يكون له وجود حقيقي في الخارج إلا بالأسماء والصفات، وتصور وجود ذات مجردة عن الأسماء والصفات هو تصور في الذهن فقط، والذهن قد يفرض المستحيل.
- أنّ تعدد صفات الواحد وتكثر أسمائه، لا محذور فيه، بل هو تكثير لأنواع الكمال، وبيان لأصناف الجمال.

أما مخالفته لصريح العقل:فإن الذات المسلوبة للصفات ليست مثل الذات المتصفة بها، فضلاً عن أن تكون أكمل منها(١).

الثاني: من **أوجه المخالفة في المرتبة الأولى للتجلي:** أن الله ﷻ دعا عباده في كتبه الإلهية إلى النظر في صفاته وأفعاله تعالى دون الذات المجردة، فإن الذات المجردة لا يلحظ معها وصف ولا يشهد فيها نعت، ولا تدل على كمال ولا جلال، ولا يحصل من شهودها إيمان، فضلاً عن أن يكون من أعلى مقامات العارفين، على أنه لا سبيل للقوى البشرية إلى شهود الذات الإلهية ألبته (٢).

٢. **ومن المخالفات الاعتقادية للمرتبة الثانية من التجلي** – وهو التجلي الذاتي: الذي يظهر به أعيان الممكنات التي هي من شؤن الذات لذاته تعالى، وهو التعين الأول بصفة العالمية والقابلية، وللحق بهذا التجلي نزول من الحضرة الأحدية إلى الحضرة الواحدية بالنسب الأسمائية (٣)– :

– أنهم جعلوا هذه الرتبة أقل من الأولى لأنها نزول من الحضرة الأحدية – الذات المجردة من الأسماء والصفات – إلى المرتبة الثانية وهي الحضرة الواحدية بالنسب الأسمائية، وفيه تجلي صفات الذات وهو التعين الأول للذات بصفة العالمية والقابلية: بمعنى أن الذات المجردة تقوم بها صفتا العلم والقبول للتجلي الشهودي للأعيان.

– لا يخفى ما في هذه الرموز على غموضها من الخوض في الغيب، بل في أعظم غيب وهو الذات المقدسة، وما فيه من التقول على الله بلا علم وقد قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ

(١) انظر: الرسالة الأكملية ٢١ – ٢٢.
(٢) انظر: مدارج السالكين ٣/ ٢٤٣ – ٤٥.
(٣) انظر: شرح فصوص الحكم ٦٨ – ٦٩، معجم الكاشاني:١٧٣ – ١٧٤، معجم الحفني ٤٢.

مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:٣٣).

ج) – أما المرتبة الثالثة للتجلي: فكانت النهاية لهذه الطامات في مرتبتي التجلي السابقتين وهي مرتبة: التجلي الشهودي وفيها صريح عقيدة وحدة الوجود: وهو ظهور الحق بصور أسمائه في الأكوان التي صورها، وذلك الظهور هو نفس الرحمن الذي يوجد به الكل، لذا كان سر التجليات عندهم وبقلمهم: هو شهود كل شيء في كل شيء [(١)].

ثالثا: فتح هذا المصدر الذوقي على السالكين من الصوفية أبواب الباطل إذ استخدم الصوفية مصطلحات لم ترد في القرآن الكريم، والسنة الشريفة إلا على سبيل التحريم، بل اللعن، أعني مصطلح (السكر) و(الخمر)، فكيف استجاز هؤلاء أن تكون أعلى مقاماتهم في العبودية في حال السكر، وفقدان الوعي؟!.

كما أنَّ زوال العقل والتمييز والغيبة عن شهود النفس وأفعالها لا يحمد فضلاً عن أن يكون في أعلى مراتب الكمال، بل يذم إذا تسبب إليه [(٢)].

رابعا: الأذواق والمواجيد نتائج المعارف والاعتقادات، فعلى قدر العلم والمعرفة يكون الوجد والمحبة والحال [(٣)] فمتى تجئ الأذواق الصحيحة المستقيمة إلى قلوب قد انحرفت عن هدي نبيها ﷺ، و تركت ما كان عليه هو ﷺ و أصحابه و السلف الصالح، فإنهم كانوا يجدون الأذواق المتصلة بالله عزوجل في الصلاة المشروعة، وفي قراءة القرآن، وتدبره واستماعه، فصار ذوق المتأخرين إلا من عصمه الله في الدف، والأغاني المطربة من الصور الحسان والرقص، فشتَّان بين ذوق الألحان وذوق القرآن، وبين ذوق العود و الطنبور، وذوق المؤمنين والنُّور [(٤)].

خامسا: أورد «ابن القيم» اعتراض يعترضه أصحاب الأحوال والمواذيق، وأجاب عنه واضعاً يده على جرح أهل السلوك مقدماً الدواء الكافي لداء الذوق البدعي الذي أصاب كثيراً

(١) انظر: شرح فصوص الحكم ٦٨ – ٦٩، معجم الكاشاني: ١٢١، معجم الحفني ١٢٩.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى ١١/ ٩ – ١١.
(٣) انظر: مجموع الفتاوى ٢/ ٤٧٨.
(٤) انظر: أسرار الصلاة والفَرق والموازنَة بين ذَوق الصّلاة والسماع: محمد بن أبي بكر، ابن القيم، ٤٤ – ٤٦.

من أهل العبادة، وألقاهم بعيداً عن طريق السنة والاتباع فقال: وكأني بك تقول لا يقبل في هذا إلا كلام من قطع هذه المفاوز حالاً وذوقا، وأما الكلام فيها بلسان العلم المجرد فغير مقبول والمحبون أصحاب الحال والذوق لهم شأن وراء الأدلة والحجج؛ فاعلم:

أولا: أن كل حال وذوق ووجد لا يشرق عليه نور العلم المؤيد بالدليل فهو من عيش النفس وحظوظها وليس من الإنصاف رد العلم الصحيح بمجرد الذوق والحال، وهذا أصل الضلالة.

ثانيا: ليس من شرط قبول العلم بالشيء من العالم به أن يكون ذائقا له. أفتراك لا تقبل معرفة الآلام والأوجاع وأدويتها إلا ممن قد مرض بها وتداوى بها؟ أفيقول هذا عاقل؟

ويقال **ثالثا:** أتريد بالذوق أن يكون القائل قد بلغ الغاية القصوى في هذا المرتبة، أو تريد أنه لا بد أن يكون له أذواق أهله، فإن أردت الأول: لزمك ألا يقبل أحد من أحد إذ ما من ذوق إلاّ وفوقه أكمل منه، وإن أردت الثاني: فمن أين لك نفيه عن صاحب العلم؟ ولكن لإعراضك عن العلم وأهله صرت تظن أن أهل العلم لهم العلم والكلام، وللمعرضين عنه الذوق والحال، والظن يخطئ تارة، ويصيب [1].

سادسا: ظهر بالتتبع التأريخي لتعريف الذوق عند المتقدمين والمتأخرين من مصنفي الصوفية التغير الذي مر به هذا المصدر الصوفي للمعرفة والتلقي حيث تحول معنى الذوق من حال يفجأ العبد، ومكاشفات للروح تغذيها المحبة إلى أن أصبح معنى الذوق فيما بعد هو الطريق الموصل لحق اليقين، ولا يوجد إلا من طريق الصوفية، وهو مقدم على السماع، وأن نهاية هذا الذوق عند القائلين بالمصدر الذوقي من الصوفية – كما صرحت بذلك كتبهم – عقيدة وحدة الوجود التي من بلغها بالتجلي والكشف والفناء ذاقها، وهذه شهادة بهذا من صوفي كان قد دخل الطريق الصوفي وعرف حقيقته ثم منّ الله تعالى عليه بالتزام طريق المحجة البيضاء يعلنها صريحة لمن التبس عليه حقيقة هذا المصدر الصوفي – والعاقل يبدأ من حيث انتهى الآخرون – أن الغاية هي المعرفة وحدها لا العبادة، معرفة أن الحق عين الخلق، وأن العارف عندهم: هو الذي يعرف أن الكون هو الله – سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون

(١) انظر: مدراج السالكين ١/ ٥٣١ – ٥٣٣.

علوا كبيرا – ذوقاً واستشعاراً [1].

الخاتمـــــــــة

النتائج:

أولاً: إن مصدر تلقي العقيدة والمعرفة والسلوك والأخلاق وتزكية النفوس عند السلف الصالح هو الكتاب والسنة، قال تعالى:﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(النحل:٨٩)، فكل دعوى في اتباع السلف لا تكون قائمة على هذا المنهج فهي مرفوضة.

ثانيا: إن في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء:٥٦)، إشارة إلى معجزة علمية للقرآن الكريم في بيان أن حاسمة اللمس لها تذوقا عن طريق الجلد كما أن للفم تذوقا عن طريق اللسان، وإلى وجود أعضاء الحس الخاصة بالإحساس بالألم في الجلد.

ثالثا: إن الضابط في الذوق أن يعرض على كتاب الله – تعالى – وسنة رسوله ﷺ فالأذواق مختلفة، والمواجيد متغيرة، ولا ضابط لهذا، وتحكيم الذوق يفضي لأن يحكم كل مبطل على إثبات باطله بذوقه، وهو كثير في أهل الباطل والإلحاد.

رابعا: إن للإيمان طعما، وحلاوة، وأن ذوق طعم الإيمان هو عبارة عمًّا يجده المؤمن منِ انشراح صدره، وتنويره بمعرفة الله – تعالى – ومعرفة رسوله ﷺ ومعرفة مِنَّة الله– عز وجل – عليه في أن أنعم عليه بالإسلام، وأما حلاوة الإيمان فهي استلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات فيما يرضي الله تعالى ورسوله، وتحصل هذه اللذة بحصول أسبابها، كما تزول بزوالها.

خامسا: إن مصطلح الذوق عند الصوفية بمعناه الخاص – وهو المقصود عند الصوفية عند الإطلاق – ليس هو اللذة التي يشعر بها الصوفيّ جراء إخلاصه في عبادته وإقباله على ربه؛ بل هو أداة المعرفة عند الصوفية، وملكة خاصة بها تدرك الحقائق الغيبية المستترة وراء المحسوسات، ومصدر من مصادر التلقي الموصل لحق اليقين وهو مقدم على السماع.

---

(١) انظر: مصرع التصوف: للبقاعي، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل: مقدمة المحقق ٣، ٦ – ٩، وانظر: ص ١٨٦، هامش (٢)، الكشف عن حقيقة الصوفية ١٧، ٨٨ – ١٠٥، ٢٥٩، ٣٠٥ – ٣٠٧.

سادسا: إن الذوق بالاصطلاح الصوفي قد مرّ خلال مسيرته التاريخية بمراحل متعددة، وتأثر بمؤثرات مختلفة من المصادر الوافدة، والتيارات السائدة، وأن نهاية طريق الذوق عند المتأخرين من القوم هو معرفة وحدة الوجود، وأن العارف الكامل هو الذي يعرف أن الكون هو الله – سبحانه وتعالى عما يقوا الظالمون – ذوقاً واستشعاراً، أي يذوق الألوهية ويتحقق بها.

سابعا: يؤخذ على المصطلحات الصوفية أنها ألفاظ مجملة متشابهة يغلب عليها الغموض والرمز، وقد كان هذا لغايات – أبانت عنها أقلامهم – هي الستر والإجمال؛ ليتصرفوا في طريقتهم فيظهروها لمن يريدون، ويخفوها عمن يريدون، ولدفع شبهة المخالفة للنصوص، والمروق عن أحكام الشرع، وصيانة لأرواحهم من السيف.

التوصية:

إن ساحة الفكر الإسلامي مازالت بحاجة إلى حوار هادئ مع محبي التصوف الإسلامي، واقناعهم بأنه لا يوجد ما يسمى بالتصوف الإسلامي بإيقافهم على ما حفظه التاريخ وما خطته أقلام مشايخ الطريق بدءا بمن يسمون عندهم بأسياد الطائفة من أقوال تناقض التوحيد لنقف وإياهم يدا واحدة ضد كل مبتدع من السالكين لطريق الزهد والعبادة.

هذا والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه

المصادر والمراجـــع

١. أبو بكر الشبلي حياته وآراؤه: عبد الحليم محمود، ط:٢، ت: بدون.

٢. أحمد بن عجيبة شاعر التصوف المغربي: نورالدين الفقيه، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، جامعة محمد بفاس، ١٤٢٦هـ.

٣. إحياء علوم الدين: محمد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، ط. ت: بدون.

٤. التذوق الأدبي: إبراهيم عوض، مكتبة الثقافة، قطر، ط: بدون ١٤٢٦هـ.

٥. التعرف لمذهب أهل التصوف: محمد الكلاباذي، دار الكتب العلمية، بيروت: ط: ١، ١٤١٣هـ.

٦. التعريفات: علي الجرجاني، دار الكتاب العربي، ط:٢، ١٤١٣هـ.

٧. تلبيس إبليس: عبد الرحمن بن الجوزي، دار الفكر، ت.ط: بدون.

٨. الجامع لأحكام القرآن: محمد القرطبي، مؤسسة الرسالة: بيروت، الطبعة: ١، ١٤٢٧هـ
٩. الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه: محمد البخاري، تحقيق: محمد الناصر، دار طوق النجاة، ط: ١، ١٤٢٢هـ.
١٠. الحكيم الترمذي واتجاهاته الذوقية: وجيه عبد الله، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٩م.
١١. دراسات في التصوف الإسلامي، محمد شريف، دار النهضة، بيروت، ط: بدون، ١٤٠٤هـ.
١٢. دراسة في التجربة الصوفية: نهاد خياطة، دار المعرفة، دمشق، ط: ١، ، ١٤١٤هـ.
١٣. ديوان ترجمان الأشواق: محمد ابن عربي، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ١٤٢٥هـ.
١٤. ديوان عفيف الدين التلمساني: دراسة: يوسف زيدان، دار الشروق، ط. ت: بدون.
١٥. الرد على الشاذلي في حزبيه وما صنفه في آداب الطريق: أحمد بن تيمية، دار عالم الفوائد ط.ت: بدون.
١٦. رسائل ابن العربي، تحقيق سعيد عبد الفتاح، ط: الانتشار العربي، ت: بدون
١٧. الرسالة الأكملية فيما يجب لله من صفات الكمال: أحمد بن تيمية، دار المدني، القاهرة، ط: بدون ١٤٠٣هـ.
١٨. الرسالة التدمرية: أحمد بن تيمية، مكتبة التراث، ط. ت: بدون.
١٩. الرسالة القشيرية: عبد الكريم القشيري، تحقيق: معروف زريق، علي بلطه، دار الخير، بيروت، ط: ١، ١٤١٣هـ
٢٠. الرمز الشعري عند الصوفية: عاطف نصر، دار الأندلس، بيروت، ط: ١، ١٩٧٨م.
٢١. سلسة الأحاديث الضعيفة وأثرها السيء في الأمة: محمد الألباني، المعارف، الرياض، ط: ١، ١٤٢٢هـ.
٢٢. سنن النسائي: أحمد النسائي، مكتب المطبوعات ط: بدون ١٤١٤هـ.
٢٣. شرح ديوان ابن الفارض: شرح بدرالدين البوريني، وعبد الغني النابلسي، دار الكتب، بيروت، ط: ١، ١٤٢٤هـ.
٢٤. شرح صحيح مسلم: يحيى النووي، المطبعة المصرية الأزهرية، ط: ١، ١٣٤٧هـ.

٢٥ . شطحات الصوفية: عبد الرحمن البدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ت.ط: بدون.

٢٦. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل الجوهري، دار العلم، بيروت، ط:٣، ١٤٠٤هـ.

٢٧. صحيح أبي داود: محمد الألباني، المعارف، الرياض، ط:١، ١٤١٩هـ.

٢٨. صحيح الترغيب والترهيب: محمد الألباني، المعارف، الرياض، ط:١، ، ١٤٢١هـ.

٢٩. صحيح سنن الترمذي: محمد الألباني، المعارف، الرياض، ط:١، ١٤٢٠هـ.

٣٠. صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد عبد الباقي، ط. ت: بدون.

٣١. عوارف المعارف: للسهروردي، دار المعرفة، بيروت، ط. ت: بدون (وهو ملحق بكتاب إحياء علوم الدين للغزالي).

٣٢. فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد العسقلاني، رقم كتبه: فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ط. ت: بدون.

٣٣. الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية: أحمد الحسني، عالم الفكر، ط. ت: بدون

٣٤. فصوص الحكم: محيي الدين بن عربي، تعليق: أبو العلاء عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: ٢، ١٩٨٠م.

٣٥. قاموس المصطلحات الصوفي: أيمن حمدي، دار قباء، القاهرة، ت، ط: بدون.

٣٦. القرآن وعلم النفس: محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، القاهرة، ط:٧، ١٤٢١هـ.

٣٧. القضايا النقدية في النثر الصوفي: وضحى يونس، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ت، ط: بدون.

٣٨. قضية التصوف المنقذ من الضلال للغزالي: عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط:٦، ٢٠٠٨هـ.

٣٩. قواعد التصوف: أحمد زروق، المكتبة الأزهرية للتراث، ط:٣، ١٤١٩هـ.

٤٠. القواعد الكلية للأسماء والصفات: إبراهيم البريكان، دار الهجرة، الرياض، ط:١، ١٤١٤هـ.

٤١. القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى: محمد العثيمين، دار الجيل، بيروت، ط: الأولى ١٤١١هـ.

٤٢. كتاب العين: الخليل الفراهيدي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب، بيروت، ط: ١٤٢٤هـ.
٤٣. الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ: محمود القاسم، دار الصحابة، بيروت، ط:١، ١٤٠٨هـ.
٤٤. كشف المحجوب: علي الهجويري، ترجمة: محمود أبو العزائم، دار التراث العربي، ط. ت: بدون.
٤٥. لسان العرب المحيط: جمال الدين محمد بن منظور، دار صادر، بيروت، ط: ٢، ت: بدون.
٤٦. اللمع: أبو نصر السراج الطوسي، تحقيق: عبد الحليم محمود، طه سرور، دار الكتب، مصر، ط: بدون ١٣٨٠هـ
٤٧. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم، ط: مجمع الملك فهد ١٤٢٥هـ .
٤٨. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: محمد ابن قيم الجوزية، دار الكتب، بيروت، ط: ٢، ت:بدون.
٤٩. المصادر العامة للتلقي عند الصوفية: صادق سليم صادق، الرشد: الطبعة: ١، ١٤١٥هـ.
٥٠. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي: أحمد الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، ت.ط: بدون.
٥١. معجم اصطلاحات الصوفية:عبد الرزاق الكاشاني، تحقيق:عبدالعال شاهين، دار المنار، القاهرة، ط ١:، ١٤١٣هـ.
٥٢. المعجم الصوفي: سعاد الحكيم، دندرة، بيروت، ط: الأولى، ت: بدون
٥٣. معجم مصطلحات الصوفية: عبد المنعم الحفني، دار المسيرة، بيروت، ط:٢، ١٤٠٧هـ.
٥٤. المعجم الفلسفي: جميل صليبا، دار الكتاب، بيروت، ط. ت: بدون.
٥٥. معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط: ١، ١٤١١هـ.
٥٦. مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني، دار القلم، دمشق، ط: ١، ١٤١٢هـ.

٥٧ . المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: أحمد القرطبي، دار ابن الكثير، دمشق، ط: ١، ١٤١٧هـ.
٥٨ . المفهوم الرمزي للخمر عند الصوفية: حسن قريب الله، الدار العربية، ط:١، ١٤٢٠هـ.
٥٩ . منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة: عثمان بن حسن، الرشد، الرياض، ط٢: ١٤١٣هـ.
٦٠ . اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر: عبد الوهاب الشعراني، دار إحياء التراث، بيروت، ت، ط: بدون.

المجلات والمقالات الالكترونية:

١. مجلة البحوث الإسلامية، العدد الحادي والأربعون ١٤١٤، ١٤١٥هـ.
٢. الرمز الشعري واغتراب اللغة في المنظور الصوفي: شعبان بدير، موقع ديوان العرب.